



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

## تيممة الأرض في الميثولوجيا الإفريقية -دراسة في نماذج مختارة-

مذكرة تخرج مقدمة لنيل شهادة الماستر أكاديمي

الشعبة: الدراسات الأدبية

الميدان: اللغة والأدب العربي

التخصص: أدب شعبي

إشراف:

إعداد الطالبة:

د. فتيحة عاشوري

مريم حدادي

لجنة المناقشة

| الاسم واللقب   | الرتبة         | الصفة          | الجامعة                        |
|----------------|----------------|----------------|--------------------------------|
| نوال عاتي      | أستاذ محاضر-أ- | رئيساً         | جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف |
| فتيحة عاشوري   | أستاذ محاضر-أ- | مشرفاً ومقرراً | جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف |
| امباركة مسعودي | أستاذ محاضر-ب- | مناقشاً        | جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف |

السنة الجامعية: 1446هـ / 1447هـ الموافق لـ: 2025م / 2026م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## شَيْكْرُكَ تَقْدِيرُكَ

قال الله تعالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

الحمد لله نحمده على إحسانه ونشكره على توفيقه  
وامتنانه.

نحمد الله حمداً لا نهاية له، فكل شيء بفضلِهِ سبحانه  
الحمد لله دائماً وأبداً

أتقدم بخالص الشكر والتقدير للدكتورة \*فتيحة عاشوري\*

على توجيهاتها القيمة، ونصحها الصادق وتحفيزها

وتشجيعها المستمرين، شكراً جزيلاً لك.

والشكر كذلك لأعضاء اللجنة الموقرة .

وشكر خاص لعائلي الكريمة، ولكل من شجعني وساندني،

وخاصة من علمني ووجهني .

# إِهْدَاء

إلى نبع الحنان ..... وكل الحنان إلى من تفرح لفرحي وتحزن  
لحزني إلى بر الأمان أُمي العزيزة  
إلى رمز الصلابة إلى من ينير لنا درب الحياة إلى من يزيدني في  
عزيمتي وقوتي أُمي العزيزة رحمة الله عليه  
إلى زوجي وأبنائي  
إلى من أقاسمهم الماء والهواء إلى إخوتي  
إلى جميع الأصدقاء  
إلى كل من له مكانة عزيزة في قلبي  
إلى رفقاء الدرب الجامعي

حدادي مريم



# مقدمة



تعد الأسطورة من الأجناس الأدبية، التي حظيت باهتمام الباحثين والدراسيين في مشارق الأرض ومغاربها على امتداد رقعة تواجد الإنسان في ارتحاله، فهي التراث الجمعي الإنساني الذي اشتركت فيه جميع الأمم والشعوب قاطبة، ليست مجرد حكاية خيالية أو للتسلية، بل هي بناء رمزي يعكس رؤية الإنسان للعالم، وقد نشأت كمحاولة لتفسير الظواهر الطبيعية، وفهم أسرار الكون والحياة والموت.

ارتبطت الأساطير بالطقوس والشعائر والعبادات، فكانت وسيلة لتفسير نشأة الكون والإنسان وساهمت في ترسيخ العادات داخل المجتمعات القديمة .

وتشكل الأسطورة جانبًا بالغ الأهمية من الشعور الجمعي للشعوب الإفريقية، فقد كان الأفارقة يرون الأساطير والحكايات التي تضيء طابعًا شعبيًا، وتبرز البيئة الزنحية الإفريقية، مشبعة باحترام أرواح الأقدمين والخشية من غضبها، وطلب حمايتها، كونهم يؤمنون بأن الأجداد الأولين أحياء في عالم الأرواح، ويجب على الجميع احترامها للحفاظ على كيان القبيلة وتراثها، ذلك أن الأفارقة لهم قدرة كبيرة على إطلاق العنان لمخيلاتهم وتفسير الأمور الخارقة.

ومن هنا كانت أهمية الأدب الشعبي الإفريقي، كونه يمثل وثيقة مهمة تستحق التأمل والدراسة، على اعتبار أن الأساطير تمثل موقف الإنسان من قوى الطبيعة ومحاولة تفسير أسبابها، وأن الحكايات الأسطورية والقصص جوهر الأدب الشعبي الإفريقي، الذي ولد من رحم الفكرة الأولى والتأمل الواعي، وإذا تحدثنا عن الأرض فتعد في المخيال الأسطوري عنصرًا أساسيًا في بناء هذا الإنسان والوجود والعالم، فهي ليست مساحة جغرافية بل تمثل الأم التي تمنح الخصوبة وتحفظ استمرارية الحياة، لذلك فهي الأساس الذي تتشكل حوله الأساطير لما تحظى به من مكانة في وعي الإنسان الإفريقي.

لذلك تعد الأرض مصدر الوجود الأول فهي التي تحوي جميع الكائنات، وهي التي تمنح الغذاء والماء، ومنها يُخلق الإنسان وفيها يعود إليها بعد الموت، ويظهر ذلك في الأساطير الإفريقية وغيرها بوصفها أصل عملية الخلق من خلال ارتباطها بالسماء، هذا وقد ارتبطت مركزية الأرض في المخيال الإفريقي بعالم الأرواح، فقد اعتقدت الشعوب الإفريقية أن الأرواح الأجداد تظل متصلة بأرض القبيلة لتحرس أبنائها، ومن هنا اكتسبت الأرض بُعدًا هويًا ومعرفيًا، وقد ظهرت طقوس عديدة لتقديس الأرض مثل طقوس الزراعة والاستسقاء باعتبارها تعبيرًا عن الامتنان للقوة الحيوية الكامنة فيها .

انعكس هذه المركزية في الأدب الشفهي الإفريقي من حكايات وأساطير بوصفها رمزًا للخصب والعطاء وأن دراسة مركزية الأرض في المخيال الأسطوري تكشف عن رؤية فلسفية وروحية تجعل من الإنسان جزءًا من هذا الكون لا سيدًا عليه.

انطلاقاً من هذا جاءت إشكالية بحثنا كالتالي :

إلى أي مدى تجلت تيمة الأرض في الميثولوجيا الإفريقية ؟ وكيف أسهمت التصورات الأسطورية في تشكيل رؤية الإنسان الإفريقي للعالم والطبيعة ؟ وكيف عكست الأساطير الإفريقية مركزية الأرض في البناء الديني والرمزي والثقافي للمجتمعات الإفريقية؟ وما الدلالات التي اكتسبتها الأرض في مختلف النماذج الأسطورية؟.

هذا وقد تفرّعت عن هذه الإشكالية الرئيسية إشكاليات فرعية :

تبحث في ما هي خصوصيات الأسطورة الإفريقية؟، وكيف تجلت الأرض في المخيال الإفريقي باعتبارها كياناً حياً ومقدساً ؟ وما هي العلاقة بين الأرض والهوية الثقافية في المجتمعات الإفريقية؟ وكيف صوّرت الأساطير الإفريقية الأرض باعتبارها أصل الخلق ونشأة الكون؟، وكيف اكتسبت الأرض مكانتها المقدسة في المعتقدات والأساطير الإفريقية؟ "وما هو دور الأرض في بناء الهوية الجماعية والانتماء القبلي؟ وكيف جسدت الأساطير الإفريقية الأرض باعتبارها مصدرًا للحياة والخصوبة والماء الزراعي، وما هو دور الأساطير في تفسير الظواهر الطبيعية؟.

هذا وقد كان الهدف من دراسة بحثنا هو الكشف عن قيمة الأرض ومكانتها في الميثولوجيا الإفريقية، وبيان أبعادها الرمزية والدينية والاجتماعية والثقافية في المخيال الأسطوري الإفريقي، وكذلك إبراز أهم السمات التي تميز الأساطير الإفريقية، تحليل رمزية الأرض باعتبارها الأم الكونية ومصدرًا للحياة والخصوبة والاستمرارية، وإبراز البعد المقدس للأرض وعلاقتها بالأرواح والآلهة في المعتقدات الإفريقية، ودراسة طقوس الخصوبة المرتبطة بالأرض واستجلاء العلامة بين الأرض ودوره الحياة من خلال مفاهيم الميلاد والموت والبعث.

ومن الأهداف المرتبطة بهذه الدراسة أيضا توضيح الوظيفة التفسيرية للأسطورة في تفسير الظواهر الطبيعية المرتبطة بالأرض كالخصب والجفاف ... وإبراز دور الأرض في حفظ الذاكرة الجماعية والموروث الثقافي عبر الأجيال .

بناءً على ما تقدم من طرح بخصوص إشكاليتنا المطروحة من وجهة نظرنا، وضعنا خطة يمكن أن تفي بقضايانا المطروحة، فقسمنا الدراسة مقدمة وفصلين؛ أحدهما نظري والآخر تطبيقي وخاتمة حوصلت مختلف النتائج.

وسم الفصل الأول بـ: الأسطورة الإفريقية: مقاربات مفاهيمية، يندرج ضمنه مفهوم الأسطورة في الدراسات الحديثة وخصوصيات الأسطورة الإفريقية، يليها الأرض في المخيال الأسطوري ويندرج ضمنه مفهوم الأرض ودلالاتها الرمزية وخصوصية التصور الإفريقي للأرض.

أما الفصل الثاني فهو تطبيقي معنون ب: صورة الأرض في الأساطير الإفريقية؛ سعيًا من خلاله إلى الوقوف على تمثيلات الأرض في أساطير الخلق الإفريقية مثل أساطير الخلق والأساطير الزراعية وأساطير الخصوبة والبحث عن أبعاد الرمزية والدلالية، وكذا الوظيفية من خلال تفسير الظواهر الطبيعية، خاصة ثنائية الحياة والموت التي لطالما أرقّت الفكر الإنساني.

وقد تطلب البحث إتباع منهج موضوعي، ومن خلال آليتي التحليل والوصف حولنا وصف الأساطير الإفريقية التي تتناول الأرض، وتحليل الرموز والدلالات المرتبطة بالأرض وتفسير معاني الأرض بوصفها أصلاً للخلق وأما كونية ومصدرًا للحياة والخصوبة، وكما اعتمدنا على من خلال فهم علاقة الإنسان الإفريقي بالأرض والطبيعة.

هذا وقد اعتمدنا على بعض الدراسات السابقة التي كانت بمثابة الطريق الذي أضاء لنا بعض الجوانب المعتمدة في بحثنا، نذكر منها:

1- شهيرة بوخنوف، أساطير الخصب في بعض الثقافات (مختبر التمثيلات الفكرية والثقافية - إبداع تواصل - نقد)، مجلة أكاديمية تعنى بالدراسات الأكاديمية في الأدب واللغة والثقافة والفكر ، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو ، العدد 03 أبريل 2017.

2- عبد الرحمن بوزيدة وجمال معتوك وآخرون : قاموس الأساطير الجزائرية ، دط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، منشورات CRASC وحدة الرغبة ، الجزائر، 2005.

3- رزائية فاطمة ، بن معمر بوخضرة : الماء والأرض والمرأة ودلالات الخصوبة من خلال طقوس الاستمطار، مجلة المواقف ، للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ ، مجلد 16، عدد 01، مارس 2020.

ويبقى البحث عملاً صعباً وشاقاً رغم متعة تصفح بعض الكتب والمراجع، وقد اعترضتنا بعض العوائق البحثية القاهرة، وعدم توفر المراجع الكافية، وندرة المعلومات في صددده لأنّ البحث حديث الدراسة.

وفي الختام نحمد الله ونشكره على توفيقه لي على إتمام هذه الدراسة ثم نشكر أستاذتي الفاضلة الدكتورة فتيحة عاشوري التي شرفتنا بإشرافها على هذا البحث وتقديم يد المساعدة والنصائح القيمة التي كانت لي عوناً وكشف عن بعض الجوانب من بحثي.



# الفصل الأول : الأسطورة الإفريقية: مقاربات مفاهيمية

## تمهيد :

تعد الأسطورة إحدى الدعائم المعرفية التي من خلالها شيد الإنسان البدائي رؤيته للعالم، وهي من أقدم الأشكال السردية التي ارتبطت بمحاولات الإنسان الأولى لفهم الطبيعة والإجابة عن أسئلة الكون الميتافيزيقية ولم تكن مجرد حكاية خرافية، بل هي نتاجًا ثقافيا واجتماعيًا يعكس معتقدات الشعوب، وقد حظيت باهتمام واسع لدى اللغويين والباحثين ومعرفة دلالة الكلمة لغويًا ومعرفة الأبعاد الفلسفية والنقدية إل معرفة خصائصها الوظيفية المعرفية.

## أولاً: مفهوم الأسطورة في الدراسات الحديثة

### الأسطورة لغة :

وجد بعض العلماء تعريفاً للأسطورة وإن كان غامضاً، فالأسطورة ليست سوى علماً بدائياً أولياً، أمّا في المعاجم اللغوية العربية، فالأساطير هي الأحاديث التي لا نظام لها، هي الأباطيل والأحاديث العجيبة وسطرت تسطيراً ألف وأتى بالأساطير والأسطورة الحديث الذي لا أصل له.<sup>1</sup>

كما ورد في لسان العرب في باب سطر " سطر: السَطْرُ، الصَّف من الكتاب والشجر والنخل ونحوها، والجمع من كل ذلك أسطُرٌ وأسطارٌ وأساطيرٌ. والسَطْرُ: الخط والكتابة<sup>2</sup>، قال تعالى : ﴿ وقالوا أساطير الأولين ﴾ . خير لإبتداء محذوف، ومعناه سطره الأولون وواحد الأساطير أسطورة، كما قالوا أحداثثة وأحاديث والأساطير: الأباطيل وسطرها: ألفها. الأساطير: أحاديث لا نظام لها واحدها إسطار واستطارة بالكسر وأسطورة بالضم<sup>3</sup> .

كما وردت لفظة الأسطورة في المعجم الوسيط بمعنى الخرافة والحكاية التي ليس لها أصل جمعها أساطير.<sup>4</sup>

أمّا في القاموس المحيط فالسطر: الصف من الشيء كالكتاب والشجر وغيره وجمعها أسطر وسطور اسمه تجاوز السطر وفلان أخطأ في جرادته، والساطرون ملك من ملوك المعجم.<sup>5</sup>

كما وردت لفظة الأسطورة في القرآن الكريم قال الله تعالى : ﴿ يقول الذين كفروا إنّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ . فالرسول أثناء حديثه يذكر الله ويحدث قومه بما أصاب من قبلهم من الأمم، لكن النضر بن الحارث الذي كان يؤدي رسولنا الكريم يقول : ﴿ إِنَّا وَاللّٰهِ مَعَشَرَ قَرِيشٍ أَحْسَنَ حَدِيثًا مِنْهُ فَهَلُمُوا أَنْ أَحَدْتَكُمْ أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِهِ ﴾<sup>6</sup> .

1. محمد حمود : الحداثة في الشعر العربي المعاصر، بيانها ومظاهرها، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، لبنان، 1986، ص 144.

2 ابن منظور : لسان العرب، منشورات علي بيضون، دار الكتاب العلمية، الطبعة 1، 2003، ج1، ص 129.

3 وردة لواتي، الأسطورة الإفريقية، خصائص ومميزات ، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، العدد 7، المجلد 02 ، ماي 2015 ، الجزائر ، ص 237.

4 المعجم الوسيط : معجم اللغة العربية، الجزء الأول، مطبعة مصر، ص 17

5 الفيروز آبادي: قاموس المحيط، دار الفكر ، بيروت، د ط ، 1983، ج1، ص 48

6 الزمخشري: الكشاف، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط1، 135، ص 102.

ومصطلح الأسطورة هو الترجمة العربية المصطلح اللاتيني *myth* المشتق من المصطلح الإغريقي (ميتوس)<sup>1</sup> وهو في المعاجم الغربية فولكلور بدائي لعرق أو أمة تشرح أصل الحياة أو الاعتقادات الدينية والقوى الطبيعية ويسوق الزبدي في معجمه تاج العروس قوله " سَطَرَ ما لا أَصْلَ له أي يُؤْلَف ، وفي حديث الحسن الأشعث عن شيء من القرآن فقال له والله إنك ما سَطَرَ على شيء أي ما تروج ، يُقال سطر فلان على فلان أي خرف له الأفاويل ونغفها.<sup>2</sup>

أمّا في الصحاح لصاحبه الفارابي أسطر: الصف من الشيء يقال نبي سطرًا وغرس سطرًا: الخط والكتابة وهو في الأصل مصدر والسطر بالتحريك مثله قال جرير: من شاء بايعته سبب مالي، وخلعته ما تكمل التيم في ديوانهم سطرًا والجمع أسطّار مثل سبب وأسباب قال رؤية.<sup>3</sup>

إني وأسطار سطرًا لقائل يا نصر نصرًا نصرًا ثم يُجمع على أساطير وجمع السطر أسطر وسطور مثل : أفلس وفلس والأساطير: الأباطيل الواحد أسطورة وإسطارة بالكسر .

### الأسطورة اصطلاحًا :

إذا كان مصطلح الأسطورة بمفهومه اللغوي يتعدد ويتشعب فإنّه بمفهومه الاصطلاحي أكثر مرونة (...)، وهذا يرجع لكون الأسطورة ظاهرة ثقافية وأدبية غاية في التعقيد، فقد جاء عن الباحث والفيلسوف مرسيا إلياد، في كتابه الميثولوجيا السّوريّة تعريف للأسطورة مفادها أن " الميتوس *mythos* وهي عند الإغريق تعني حكاية، والأسطورة تروي قصّة مقدّسة وحادثًا وقع في زمن البدء سواء أكان ما أتى إلى الوجود هو الكون أو جزء منه ولا يروي الميتوس إلّا ما حدث فعلاً، ويفسّر ما هو كائن وموجود فعلاً لذلك فهو قصّة حقيقية ".<sup>4</sup>

فالأسطورة يتعدّد معناها في اللّغة بين قصّة خيالية وحكايات قديمة والأسطورة في معناها الاصطلاحي قابلة للتغيّر والتعديل حسب الباحثين فهي ظاهرة ثقافية تعكس معتقدات الشعوب، وهي كذلك ظاهرة أدبية تُروى بأسلوب قصصي وتمزج بين الدين والخيال والتاريخ فهي ترتبط بالآلهة والكائنات الخارقة، وهي ترتبط خلق الكون والإنسان وتفسّر أصل الأشياء مثل كيف خلق الكون والحياة .

<sup>1</sup> Kathleen morner and ralph rauxxl MCSDI ctionary of literary terms (Chicago, Ntc publishing group 1991 p 141.

<sup>2</sup> الزبدي محمد مرتصف تاج العروسة ، ج3، من جواهر القاموس، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت، ط1، سطر، ص 267.

<sup>3</sup> الفارابي أبو النصر اسماعيل بن حماد الجوهري، (المتوفى 393 هـ) الصحاح تاج اللّغة وصحاح العربية، ج2، تحقيق أحمد عبد الطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط4، 1407هـ/1987 ، ص 684.

<sup>4</sup> وردة لواتي : الأسطورة الإفريقية ، خصائص ومميزات ، مجلة " دورة نصف سنوية محكمة تصدر عن معهد الآداب واللّغات " إشكالات في اللّغة والأدب ، العدد 7، المجلد ، 2015، الجزائر .

والأسطورة عند بعض الدارسين المعاصرين هي : " مجموعة من الحكايات الطريفة المتوارثة من أقدم العهود، الحافلة بضروب من الخوارق والمعجزات التي يختلط فيها الخيال بالواقع ، ويمتزج عالم الظواهر بما في ذلك إنسان وحيوان ونبات ومظاهر طبيعية لعالم ما فوق الطبيعة من قوى غيبية. اعتقد الإنسان لأوهيتها فتعددت في نظرة الألهة تبعاً لتعدد مظاهرها المختلفة " <sup>1</sup>.

ومن خلال القول السابق فقد اختلف الباحثين المعاصرين والقدتمى في تعريف الأسطورة فهي مجموعة من القصص ، ظهرت منذ القديم لكن أضاف كلّ جيل لها شيئاً جديداً، فهي قصص وحكايات مليئة بأحداث خارقة كتحويل الإنسان إلى حيوان فالأسطورة تعتمد على الغريب وتخلط الواقع بالخيال وتخلط الواقع بعالم ما فوق الطبيعة فالإنسان القديم كان ينسب الظواهر التي تقع إلى قوى خارقة ولم يكن يقدم تفسيراً علمياً، فتعددت الآلهة يتعدد الظواهر مثل إله الشمس والقمر والمطر ... .

" والأسطورة حسب ما يراها مرسيا إلياد هي أحداث تاريخية تروي تاريخاً مقدساً " إنّ الأسطورة تاريخ مقدس يروي عن الأصول والبدايات الأولى لكنّها لا تتخذ من هذه الأصول والبدايات موقفاً ذهنياً وصفياً بقدر ما تسعى إلى استرجاع هذه الأزمنة المقدسة ، وذلك عبر الذاكرة الجماعية ، فالأسطورة في رؤية تبين لنا حقيقة كائنات عليا (ألهة) وأفعالها التي قامت بها عبر الزمن السحيق ، فهي إذاً تروي لنا حقائق مقدسة عن أعمال كائنات مقدسة ترتبط بها الأسطورة " <sup>2</sup>.

فالأسطورة كما يرى مرسيا إلياد ليست مجرد حكاية بل هي تاريخ مقدس تروي أحداث وقعت في الزمن البدائي وهو زمن مليء بالقداسة، حيث ظهرت الآلهة وقامت بأعمال جدّ عظيمة.

ويقول مرسيا إلياد " تروي الأسطورة كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود بفضل خوارق الكائنات الماورائية سواء أكانت الحقيقة كلية كالكون أو جزئية كالسلوك الإنساني، فهي دوماً حكاية خلق تحكي لنا كيف كان إنتاج شيء، وكيف وجوده، أما أشخاص الأساطير فهم كائنات ما ورائية عرفوا بما قد ضعه في الزمن العجيب لبدايات " <sup>3</sup>.

<sup>1</sup> صالح ولعة ، أعمال ملتقى الأدب والأسطورة ، منشورات خير الأدب العام والمقارن ، كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار ، عنابة ، 2007، ص 14

<sup>2</sup> وردة لواتي : الأسطورة الإفريقية، مرجع سابق ذكره ، ص 238 .

<sup>3</sup> صالح ولعة : أعمال ملتقى الأدب والأسطورة ، المرجع السابق، ص 14.

ففي هذا القول يفرّق مارسيا إلياد بين حقائق كلية كخلق الكون والسماء والأرض وحقائق جزئية مثل ظهور سلوك إنساني معيّن كالعادة وطريقة العيش فالأسطورة لا تفسّر فقط حقائق الكون الكبير بل تفسّر تفاصيل الحياة اليومية للإنسان.

وهي أيضاً: " حكاية شعبية أو أدبية موضوعة حول كائنات فائقة المزايا الإنسانية والحوادث المعبر عنها تحت غطاء الخرافة والمبادئ والقيم لمجتمع ما أو آخر والأكثر عبقرية أنها تجسّد بنية العقل البشري أمام الكثير من الظواهر التي تحيط به. وبالتالي يجد الإنسان نفسه مجبراً على اللجوء إلى التفسيرات والتأويلات الميتافيزيقية لكي يكبح غزيرة حب المعرفة والاطلاع"<sup>1</sup>

فعندما عجز الإنسان عن الفهم العلمي لجأ إلى تفسيرات ميتافيزيقية مثل تدخل الآلهة أو القوى الخفية، وذلك لتلبية حاجاته إلى المعرفة وتهدئة فضوله تجاه ما يحيط به من ظواهر غامضة .

كما ورد في المعجم الأدبي حول الأسطورة ما يلي : " الأسطورة سرد قصصي ... تعتمد عليه المخيلة الشعبية فتبدع الحكايات الدينية والقومية والفلسفية لتثير بها انتباه الجمهور والأسطورة تعتمد عادة على تقاليد العامة وأحاديثهم وحكاياتهم، فتتخذ منها عنصراً أولياً ينمو مع الزمن بإضافات جديدة حسب الرواة فتصبح غنية بالأخيلة والأحداث والعقد ."

ولقد تعددت تعريفات الأسطورة تعداداً واسعاً بسبب تعدد منطلقات الدرس الأسطوري وغاياته ووسائله، وتداول المصطلح في مختلف مجالات العلوم الإنسانية وصلته بالحضور الكلي في المعرفة والدراسات البنية التي تعني تردد موضوعاً واحداً بين أكثر من حقل معرفي، ومهما يكن من أمر هاتين السمتين المميز بين لمجمل اتجاهات الدرس الأسطوري، فإنّ هناك قاسماً مشتركاً يجمع بينها دميعة هو أن الأسطورة " رواية أفعال إله أو شبه إله لتفسير علاقة الإنسان بالكون أو بنظام اجتماعي بذاته أو عُرّف بعينه أو بيئة لها خصائص تنفرد بها "<sup>2</sup>.

أو هي مظهر لمحاولات الإنسان الأولى كي ينظم تجربة حياته في وجود غامض خفي إلى نوع ما من النظام المعترف به " .

وقد اشترط غريمال *grimal* لتنمية مغامرات العقل الأولى بالأساطير أن تكون تلك المغامرات حول تكوين العالم وولادة الآلهة أي الأساطير التيوغونية (المتعلقة بنسب الآلهة) أو الأساطير الكوسموجية (المتعلقة نشأة الكون (...)) وإنّ كلمة *Myth* في نشأتها الأولى تعني الحكاية المقدسة، أي الحكاية التي تروي تاريخاً مقدساً أو

صالح ولعة : أعمال ملتقى الأدب والأسطورة ، المرجع السابق، ص 15 .<sup>1</sup>

<sup>2</sup> نضال الصالح : النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة ، منشورات ، اتحاد الكتاب العرب ، ط1، 2001، دمشق ، ص 11 .

حدثا جرى في الزمن البدئي، وتعلل كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود بفضل ما أثر اختارتها كائنات عليا اتصفت أفعالها بالقدسي والخارق.<sup>1</sup>

فمن الصعوبة تعريف الأسطورة لدى كثير من العلماء ولأنها تداخلت مع ظواهر أخرى كالخرافة والملحمة والقصة، ولتعدد الاختصاصات التي تهتم بالأسطورة فإنها تلتقي في مجالها حقولاً معرفية متنوعة كما تؤكد الموسوعة العالمية، فقد اهتم بها العلماء الإنسانيين وعلماء الكلام وعلماء الاجتماع الثقافيون والفولكلوريين ومؤرخي الأديان ومؤرخي الأفكار والحقوقيين والاقتصاديين وعلماء الآثار واللسانيون وعلماء النفس والمحللين النفسيين والفلاسفة.<sup>2</sup>

### الفرق بين الأسطورة والحكاية الشعبية والخرافة :

الأسطورة والخرافة والحكاية مشتركات إنسانية لا يقتصر وجودها على شعب دون آخر لكنها ترد عند الجميع بدرجات متفاوتة فقد تقلّ الأسطورة وتتوارى الخرافة أو تعطفى الأسطورة وتتوارى الخرافة بينما تظل الحكاية مشتركة بين هذه الأنواع، إذ يُصب الكلّ في النهاية في قلبها وقلبها وهو الخيال الشعبي.<sup>3</sup>

ولعل أهم الأجناس الأدبية اختلاطاً بالأسطورة الخرافة والحكاية الشعبية، فلا يمكن تقديم تعريف جامع مانع للأسطورة فالأسطورة في أصلها الإغريقي أو اليوناني *Mythos* الكلمة بوصفها مقابل الوجود، وبكونها ما يميّز الإنسان عن بقية الكائنات وتعني كلمة *Myth* في اللغة الإنجليزية الأسطورة أو الخرافة أو شخصاً أو شيئاً خرافياً، وتبدو العلاقة بين *Mythos* ، *Myth* ، وكلمة *Mouth* أي فم : واضحة كما نرى، فهي تعني الكلام المنطوق الذي يؤدي في شكل قصصي، ويكون نتاج الأفعال والطقوس التعذيبية المنبثقة عن عقيدة ما.

وردت الأساطير في المعاجم اللغوية ودلت على الأباطيل والأكاذيب والأحاديث التي لا أصل لها وابتعدت عن الواقع واقتربت من الخرافة، فقد وردت الكلمة في القرآن الكريم بصيغة الجمع ومقتربة بكلمة الأولين، وهي تأتي في معرض اتهام كفارة قريش النبي صلى الله عليه وسلم .

بنقل ونسخ قصص الأقدمين وخرافاتهم في القرآن سواء كانت متناقلة شفاهية أم مكتوبة في كتب الأولين مما يومي إله نمط مخصوص من النوع الأدبي، يُعرف باسم محدّد (...).

<sup>1</sup> نضال الصالح : النزع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة ، لمرجع السابق ، ص 12.

<sup>2</sup> Pierre smith , Encylopedia universalis , tous droits réservés, paris , 2004, p50

<sup>3</sup> د. أسامة أبو العباس : دراسات عربية رسالة المشرق، من ملامح الخيال الشعبي في التراث العربي الإسلامي ، ص 7.

تعددت تعريفات التي قدّمها الباحثون لمصطلح الأسطورة وتنوعت، وذهبوا في تعريفها مذاهب شتى فمنهم من رأى أنها " فكرة بدوية تاريخية صيغت بصيغة الإطناب والمغالاة لإظهار أهمية الحادثة التاريخية في جيل زال أثره في ذهن الناس " ، " وأنها التاريخ في صورة متحركة " ، " فهي في الأصل كانت تاريخاً وواقعاً ثم تحولت إلى أسطورة ومنهم من عدّها " حكاية مقدسة ذات مضمون عميق يكشف عن معان ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان " ، وهي من حيث الشكل " قصّة تحكمها مبادئ السرد من حبكة وعقدة وشخصيات وما إليها " ومنهم من نظر إليها على اعتبارها أنها تجربة وجودية ترمز إلى واقع مقدس يدرك الإنسان من خلاله عالم الغيب " أي أنها أصبحت رمزاً يكشف عن كيفية التطور العقلي لدى الشعوب أو الجماعات وتدل على الرواسب النفسية والثقافية التي تغلغت في العمل البشري وتوارثتها الأجيال <sup>1</sup>.

فالأسطورة كانت حدثاً تاريخياً حقيقياً، لكن مع مرور الزمن تحولت إلى قصّة مبالغ فيها لإبراز أهميتها، وقد اعتبرها البعض حكاية مقدسة تحمل معاني عميقة تتعلق بالكون والإنسان كما أنها تأخذ شكل قصة لها عناصر السرد.

ولعل الخرافة هي أكثر الأنواع شبهاً بالأسطورة (...) حتى تتبين الفروق الواضحة بين النوعين، " تقوم الخرافة على عنصر الاندهاش وتمتلى بالمبالغات والتهويلات وتجري أحداثها بعيداً عن الواقع حيث تتحرك الشخصيات بسهولة (...) وتتشابك علائقها مع كائنات ما ورائية متنوعة مثل الجن والعقارب والأرواح الهائمة، وقد تدخل الآلهة مسرح الأحداث في الخرافة " <sup>2</sup>.

وتشترك الخرافة مع الأسطورة في كونها يتناولان الأعمال الخارقة التي يقوم بها الإنسان وتتناهى مع قواه الطبيعية، لذا لم يفرق بعض الباحثين بينهما، وعرف أحدهم الأسطورة بأنها " قصّة خرافية صاغها الإنسان الأول حسبما أوحى له خياله الضعيف: واستعملها الإغريق بمعنى الحكاية القديمة أو القصّة الخرافية " ، من ناحية أخرى فما زالت كثير من الخرافات تحمل في طياتها بعض الخصائص والسمات التي تميّز الأسطورة، وإن اعتمدت الخرافة على الخيال وانفصلت عن الواقع .

وهي طابع رمزي بمعنى أخلاقي، وعموماً يكون أبطالها حيوانات أو نباتات أو طيوراً، لذا عُرفت الخرافة بأنها حكاية تستهدف غاية أخلاقية، وهي قصّة تقوم بأحداثها حيوانات تتحدث وتتصرف كالإنسان وتحفظ مع ذلك بسماتها الحيوانية وتقصد إلى مغزى أخلاقي " .

<sup>1</sup> د. أسامة أبو العباس : دراسات عربية رسالة المشرق، المرجع السابق، ص 07.

<sup>2</sup> فراس السواح: الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية ، منشورات دار علاء الدين ( ط2 ) ، 2001، ص 15.

فالحدود بين الخرافة والأسطورة ليست دائماً على ما نشتهي من الوضوح وقد يشبه بعض الخرافات الأساطير في الشكل والمضمون إلى درجة نثير الالتباس والحيرة، فلا نستطيع التمييز بينهما إلاّ باستخدام المعيار الرئيسي الحاسم الذي أثبتناه في تعريفنا للأسطورة، وهو معيار القداسة، فالأسطورة هي حكاية مقدسة يؤمن أهل الثقافة التي أنتجتها بصدق روايتها إيماناً لا يتزعزع ويرون في مضمونها رسالة سرديّة موجهة لبني البشر، فهي تبين عن حقائق خالدة وتؤسس لصلة دائمة بين العالم القدسيّة، أمّا الخرافة فإنّ روايتها ومسموعها على حد سواء يعرفان منذ البداية إنها تقص أحداثاً لا تلزم أحد بتصديقها أو الإيمان برسالتها.<sup>1</sup>

من الحكايا التقليدية التي يصنفها المؤلفون الغربيون في زمرة الأساطير الإغريقية، بينما ينبغي تصنيفها في زمرة الخرافة ( وفقاً لما قدمته من معايير التفريق، تلك الحكايا التي تدور حول الأبطال الخرافيين من الرجال وأنصاف الألهة. أمثال بيرسيوس وحيسون وثيرسيوس، فهذه جميعاً حكايا غير مقدّسة ولم يتداولها الإغريق كأساطير تحمل رسالة سرديّة من أي نوع لبني البشر وإذا بحثنا عن أمثلة أكثر قرباً من ثقافتنا العربيّة وجدناها في عدد من الحكايا التقليدية مثل سيف بن ذي يزن والأميرة ذات الهمة، وعدد لا بأس به من حكايا ألف ليلة وليلة.<sup>2</sup>

فهذه القصص يغلب عليها الطابع القصصي ولا ترقى إلى مستوى الأسطورة، وهي بذلك أقرب للخرافة في تصنيفها الأدبي.

فقد صعب تحديد ماهية الأسطورة لتداخلها مع الحكاية الخرافية والحكاية الخرافية والحكاية الشعبيّة، وراجع إلى الاختلافات الاجتماعيّة والثقافيّة والفكريّة والرؤى المتباينة التي ينتمي إليها كلّ من حاول فهمها، بالإضافة إلى احتوائها على ميزات مشتركة بين أمم مختلفة وإذا كانت كلّ الشعوب القديمة قد عرفت الأسطورة والخرافة والحكاية، فإنّ ثمة حضوراً لما في بنية العقل العربي الإسلامي، يقترب أو يتعد عمّا لدى الشعوب القديمة الأخرى.

يُصعب من خلال هذا القول تعريف الأسطورة بدقة بسبب تداخلها مع الحكاية الخرافية والشعبية واختلاف الخلفيات الاجتماعيّة والثقافيّة والفكريّة للدارسين إضافة إلى تشابه بعض خصائصها بين الشعوب وحضورها عند المسلمين يختلف عن حضورها لدى الشعوب القديمة الأخرى.<sup>3</sup>

فما يميز الحكاية الشعبيّة بشكل رئيسي عن الحكاية الخرافية والحكاية البطولية هو هاجسها الاجتماعي فموضوعاتها تكاد أن تقتصر على مسائل العلاقات الاجتماعيّة والأسرية منها، والعناصر القصصيّة التي تستخدمها

<sup>1</sup> فراس السواح: الأسطورة والمعين، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، المرجع السابق، ص ص 15-16.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 16.

<sup>3</sup> نفسه، ص 17.

الحكاية الشعبية معروفة لنا جميعاً مثل زوجة الأب الحقودة وغيره الأخوات في الأسرة من البنت الصغرى التي تكون في العادة الأجل والأحب ، أو غير الأخوة من أخيه الأصغر المفضل لدى الأب.

فالحكاية الشعبية تتميز بطابعها الاجتماعي فهي تختلف عن الحكاية الخرافية والبطولية في تركيزها على حياة الناس اليومية، وعلاقاتهم داخل المجتمع، فهي لا تهتم بالأحداث الخارقة أو البطولات العظيمة، بقدر ما تهتم بما يجري داخل الأسرة أمّا موضوعات الحكاية الشعبية تنحصر في العلاقات الاجتماعية خاصة الأسرية مثل: علاقة الأب بأبنائه أو التنافس بين الإخوة.

فالحكاية الشعبية تعكس واقع المجتمع ومشكلاته النفسية والاجتماعية ويقدمها في قلب قصصي بسيط يسهل فهمه وتداوله بين الناس.

فالحكاية الشعبية تتسم بالواقعية فهي تخلو من التأملات الفلسفية وتركز على أدق التفاصيل، وهموم الحياة والبطل في الحكاية الشعبية يتسم بالحيلة والفطنة للخروج من المأزق أو التغلب على العدو، فإنّ الخيالية ليست معدومة، فقد تستخدم في الإثارة والتشويق

مثلاً عندما يقابل البطل غولاً أو جنياً فيحاول الإيقاع به مثلما لا يضيف طابع الواقعية على الخرافة وجود أحداث وشخصيات واقعية فيها، ومن حيث الصياغة فإنّ بنية الحكاية الشعبية هي بنية بسيطة تسير في اتجاه خطي واحد، وتحافظ على تسلسل منطقي ينساب في زمان ومكان حقيقي على عكس الحكاية الخرافية ذات البنية المعقدة التي تسير في اتجاهات متداخلة ولا تتقيد بزمان حقيقي أو مكان حقيقي وبالتالي فإنّ الحكاية الشعبية تتميز برسالتها التعليمية التهديبية ومعظمها يحمل في ثناياه درساً أخلاقياً ما مثل : جزاء الخيانة ، وفضل الإحسان ومضار الحسد

فإنّ الحدود الفاصلة بين هذه الأجناس التي صنفناها خارج زمرة الميثولوجيا ليست على درجة كبيرة وكافية من الدقة والوضوح، من هنا فإنّ الباحث في الأدب التقليدي يمكن أن يجزئها إلى زمر أكثر تخصيصاً، وهذا الموضوع يخرج عن دائرة البحث التي حدّدتها هنا، والتي تقتصر على رسم الإطار العام لمصطلح الأسطورة ووضع أهم المعايير التي تفيدنا في التعرف على النصّ الأسطوري<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> فراس السواح: الأسطورة والمعين دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية ، المرجع السابق، ص 18.

## ثانياً : خصوصيات ومميزات الأسطورة الإفريقية

يتميّز النصّ الأسطوري عن غيره من النصوص الأدبيّة، والأجناس الأخرى بمعايير نلخصها فيما يلي :

إنّ الأسطورة هي عنصر مكوّن للفكر البشري، وعنصر جمالي وبنائي في النصّ الأدبي ... فالأسطورة في بنيتها العميقة رؤية تاريخيّة، لكن لا تعني تاريخاً ثابتاً بل هي في صيرورتها قادرة على كشف بؤر الظلام سواء في الماضي أو في الحاضر .

ونجد فراس يذكر في كتابه خصائص ثمينة للأسطورة :

**1.** من حيث الشكل " الأسطورة هي قصّة ، وتحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات، وما إليها وغالباً ما يجري صياغتها في قالب شعري، يساعد على عملية ترتيبها وتداولها في المناسبات الطقسية، كما يزودها الطابع الشعري سلطان على القلوب ، لا يتمتع به النصّ النثري " <sup>1</sup>.

**2.** يحافظ النصّ الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن وتناقلته الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيجابية بالنسبة إلى الجماعة، فالأسطورة السومرية " هبوط إنانا إلى العالم الأسفل " والتي دونت كتابة خلال النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، قد استمرت في صيغتها الأكادية المطابقة تقريباً للأصل السومري إلى أواسط الألف الأوّل قبل الميلاد، غير أن خصيصة الثبات هذه لا تعني الجمود والتحجر. لأنّ الفكر الأسطوري يتابع على الدوام خلق أساطير جديدة ولا يجد غضاضة في التخلي عن تلك الأساطير التي فقدت طاقته الإيجابية أو تعديّلها. <sup>2</sup>

**3.** تتميز الأسطورة بأنها حكاية مقدسة وذلك من خلال الطابع الديني والطقوس التي تمارس في الأعياد الدينيّة اليونانيّة لكبير الآلهة " ديونيزوس " فالأسطورة " هي حكاية مقدسة ، يلعب أدوارها وأنصاف الآلهة والبشر ولأبطال أحداثها ليست مختلفة، بل إنها وقائع حصلت في زمن البدء (الزمن المقدس) ، وهي سجل الآلهة ويحتوي كثيراً من الطقوس الدينيّة والعادات " <sup>3</sup>.

**4.** تتميز موضوعات الأسطورة بالطابع الجدلي والشمولي مثل نشأة الكون وحياة الآلهة والبشر وكذلك هو تجس الإنسان وتساؤلاته عن الموت والعالم الآخر، ومعنى الحياة وسرّ الوجود، " وهي تشترك في موضوعاتها مع الفلسفة إلّا أنّ الفلسفة تلجأ إلى المحاكمة العقلية للمفاهيم والعلوم بينما تلجأ الأسطورة على الخيال والعاطفة والتميز " <sup>4</sup> لذلك تفرّعت الأسطورة في بداياتها عن جدل الفلسفة والمنطق، فأصبحت على طريقتين.

<sup>1</sup> فراس السواح: الأسطورة والمعين دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية المرجع السابق ، ص 12.

<sup>2</sup> المرجع نفسه .

<sup>3</sup> نفسه، ص 26.

<sup>4</sup> سلسلة عندما نطق السراة، الأسطورة توثيق حضاري 21.

5. لا يعرف للأسطورة مؤلف بعينية فهي مجهولة المؤلف " بمعنى أنها تنتقل من جيل إلى جيل بالرواية الشفهية، مما يجعلها ذاكرة جماعية التي تحفظ قيمها وعاداتها وطقوسها، وحكمتها وتنقلها للأجيال المتعاقبة " <sup>1</sup>
- فالأسطورة هي الضمير الجمعي للأمم والشعوب الغابرة ، ميزتها حفظ الميراث الإنساني وتواتره عن طريق الرواية الشفهية، التي تناقلتها الأجيال عبر فترات زمنية متتالية .
6. للأسطورة تأثير قوي على أذهان وعقول البشر لما لها من سلطان تقديسي ذهني على عقولهم ونفوسهم، حيث لا يمكن قياس سطوتها الحيادة قديماً إلا بسطوة العلم" ، فالأسطورة هي علم البشر الأوائل الذين حاولوا التفكير يحيط بهم من مظاهر كونية غير طبيعة لذلك تعددت الألوهة يتعدد مظاهر الطبيعة مجهولة التفسير بالنسبة إليها وبمرور الزمن فقدت الأسطورة سلطانها التقديسي بظهور العلم .
7. تقتزن الأسطورة بنظام ديني خاص، وتعمل على توضيح معتقداته للمعتقدين بها بالغوص في صلب طقوسه، ويمكن أن تفقد الأسطورة خصوصيتها الدينية المقدسة فتتحول إلى حكاية دنيوية مدنسة تُروى لأغراض أخرى كالمواعظ والحكمة دون أن تنسب إلى اليقينيات أو الحقائق الجذرية. <sup>2</sup>
8. الأسطورة مخزون أساسي للرموز والصّور الشعرية هذه الرموز التي يشكلها اللاشعور الإنساني الجمعي، الذي يُعد مستودعاً هائلاً للرموز من خلال ما تقدم نخلص إلى أن الأسطورة أكثر الأجناس الأدبية قداسة لارتباطها بمعتقدات الشعوب وترسيخ مبادئها وأفكارها منذ خلق الإنسان والتفكير في هذا الكون الفسيح ومظاهره.
- لا تظن أنّ الميثولوجيا الإفريقية تختلف عن الميثولوجيات القديمة كثيراً من حيث التصّور الأدبي للكون والخلق ... ونتخيل أن الميثولوجيا الإفريقية تكاد تكون مغيبة عن المسرح العالمي بعد أن اجتاحت الميثولوجيا الإغريقية هذا المسرح وفرضت نفسها على الأدب والفن في كلّ الأصقاع. <sup>3</sup>
- تختلف الميثولوجيا الإفريقية عن باقي الميثولوجيات القديمة كاليونانية والشرقية، فالميثولوجيات تشترك في رؤية تقليدية للكون، كونها تفسّر نشأة العالم والإنسان من خلال قوى خارقة أو آلهة أو أحداثاً أسطورية، وليس بالاعتماد على التفسير الأسطوري بين الشعوب القديمة.
- للميثولوجيا الإفريقية طابع مميز وقوي، ولكنها تختلف عن غيرها من الميثولوجيات، فقد تبدو مهمشة عن الساحة العالمية، لأنّ الميثولوجيا اليونانية سيطرت على هذا المجال، وهي المرجع الأساسي في الأدب والفن، وهذا ما جعل غيرها من الميثولوجيات ومنها الإفريقية أقل حضوراً وانتشاراً. <sup>4</sup>

<sup>1</sup> فراس السواح : مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة، المرجع السابق، ص 16.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 13-14.

<sup>3</sup> حنا عبود : الميثولوجيا العالمية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ط4، 2009، ص 07.

<sup>4</sup> المرجع نفسه .

ولكن الأساطير الإفريقية بالانجليزية *legends of africa* أو الميثولوجيا الإفريقية بالانجليزية *african mythology* ، لم تطور إفريقيا نظاماً أسطورياً عاماً واحداً، لأن إفريقيا نفسها ليس لها شعب واحد أو تاريخ واحد أو لغة واحدة تتحدث الشعوب الإفريقية أكثر من 2000 لغة مختلفة، تعد إفريقيا قارة شاسعة موطناً للعديد من الثقافات وألف لغة أو أكثر - وقد تظهر قارة بسيطة عبارة عن صحراء كبرى ... وانتهى الأمر ، ولكن كل منطقة من هذه المناطق تكاد تكون معجزة قائمة بذاتها، وخاصة عندما يزورها مغامر من القارات الأخرى.<sup>1</sup>

وبالرغم من عدم وجود مجموعة واحدة من الأساطير والخرافات يوحد هذا التنوع السكاني إلا أن الجماعات والمناطق الثقافية المختلفة تشترك في بعض العناصر الأسطورية الشائعة مثل الأساطير من أجزاء أخرى من العالم تعكس تلك الموجودة في إفريقيا معتقدات الناس وقيمهم والأساطير الإفريقية تعمل كجزء هام من الحياة اليومية تتعامل بعض الأساطير الإفريقية مع موضوعات عالمية من أصل العالم ومصير الفرد بعد الموت، ينبع الكثير منها من بيئات القارة وتاريخها، إن أساطير الشعوب الإفريقية تعطينا لمحة عن طرق حياتهم ووجهات نظرهم الكونية.

### 1. الشفاهية ودورها في تشكيل الأسطورة :

تتكون الأسطورة من مجموعة من العناصر الأساسية مثل (الشخصيات - الآلهة - أبطال - مخلوقات خيالية) والحبكة (الأحداث التي تتحقق فيها المعجزات والمعنى (التفسير الرمزي أو الثقافي)). يتم تشكيل الأسطورة عبر روايتها الشفوية والتطوير التدريجي للمحتوى بناء على الظروف الثقافية والزمنية.

#### 1. التطور الشفوي:

كانت الأساطير تنقل شفويًا عبر الأجيال، وقد تتغير أو تتطور مع مرور الوقت استنادًا إلى التفسيرات المختلفة (رواية أفعال إله شه إله ... لتفسير علاقة الإنسان بالكون أو بنظام اجتماعي بذاته أو عرف بعينه أو بنية لها خصائص تنفرد بها أو هي مظهر لمحاولات الإنسان الأولى كيف ينظم تجربة حياته في وجود غامض خفي إلى نوع ما من النظام المعترف به.<sup>2</sup>

أ/ **العوامل الثقافية :** يتم تشكيل الأسطورة بناء على القيم والمعتقدات السائدة في المجتمع ، فكل ثقافة تضع بصمتها على الأساطير التي تكون جزءاً من هويتها، ومن خلال هذا السياق الثقافي تأتي الأسطورة لتعكس وقائع ماضية، بل لتجاوز الزمن وتفسير الحاضر والمستقبل " تشير الأسطورة عند شتراوس إلى وقائع يزعم أنها حدثت منذ زمن بعيد، لكن ما يُعطي للأسطورة قيمتها العلمية هو أنَّ النمط الخاص الذي تصفه يكون غير ذي زمن محدد،

<sup>1</sup> حنا عبود : الميثولوجيا العالمية ، المرجع السابق ، ص 07

<sup>2</sup> نضال صالح : النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة الألفية المرجع السابق، ص 12.

إنَّها تفسّر الحاضر والماضي، وكذا المستقبل (...). وجوهر الأسطورة لا يمكن في أسلوبها وموسيقاها أو في بنيتها ولكن في القصة التي تحكيها.<sup>1</sup>

كيف تنتقل الأسطورة عبر الأجيال والثقافات، الأساطير تنتقل من جيل إلى جيل عبر عدّة وسائل .

- **التقاليد الشفوية** : كان النَّاس يروي الأساطير عبر الأجيال في جلسات مسائية أو في مناسبات اجتماعية.
- **التدوين الكتابي**: مع اختراع الكتابة بدأت الأساطير تسجل على الورق ممّا تساعد في حفظها ونقلها بين الثقافات .

● **الترجمات والتكليفات الثقافية** : مع تفاعل الحضارات المختلفة تم نقل الأساطير عبر الترجمات أو التأثيرات الثقافية فمثلاً كانت الأساطير اليونانية تترجم إلى اللاتينية، وتصل إلى الرومان كما تأثرت الأساطير الهندية بالثقافات الأخرى في آسيا.

لا تقتصر الأسطورة على حضارة معينة، بل يمكن أن تنتقل من ثقافة إلى أخرى عبر الحروب أو التجارة أو حتّى الهجرات، ما يسمح للأساطير بأنّ تندمج وتتغير بحسب البيئة الثقافية الجديدة .

## 2. التداخل اللغوي في النصوص الأسطورية :

دراسة تداخل اللغات المختلفة في نقل الأسطورة هي موضوع يتناول تأثير الترجمة والتحويل اللغوي على معاني الأسطورة وتفسيرها والأسطورة كوِّها جزءاً من التراث الثقافي فتنتقل عبر الأجيال والشعوب وعندما يتم نقلها من لغة إلى أخرى، قد يتغير معناها أو يُفسر بشكل مختلف بسبب اختلافات اللغة والثقافة.<sup>2</sup> ويمكن دراسة في هذا السياق الجوانب التالية :

- **التغيرات في المعاني بسبب الترجمة** : فعند نقل الأسطورة يصعب الحفاظ على بعض المفردات التي تعمل معاني ثقافية عميقة ، وهذه الترجمة تؤدي إلى تغيّرات في المعاني الدقيقة أو فقدان بعض التفاصيل المرتبطة بالسياق الثقافي.
- **تأثير اللغة على تفسير الأسطورة** : كل لغة تحتوي على بنية لغوية ومفاهيم ثقافية تختلف على اللغات الأخرى مثلاً قد تحمل بعض الكلمات أو الرموز في الأسطورة دلالات خاصّة في الثقافة الأصلية، بينما قد يراها الملتقي في ثقافة أخرى بشكل مختلف .

● **التأثيرات الثقافية على الأسطورة** : إنّ الثقافة كما يشير بعض الباحثين تعدّ جزءاً لا يتجزأ من الحضارة حيث تشكل الأساس لفكر كلّ أمة وحركتها وأسلوب حياتها<sup>3</sup> وفي هذا السياق يمكن القول إنّ كلّ ظاهرة ثقافية بما في ذلك الأسطورة ، يتأثر بشكل مباشر بالبيئة الثقافية التي نشأت فيها . فالأسطورة تتشكل من قيم ومعتقدات

<sup>1</sup> كلود ليفي شتراون : الأسطورة والمعنى ، تر : شاكر عبد الرحمن ، دار الرحمن، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، العراق ( د ط ) ( د ت )، ص 5-6.

<sup>2</sup> طيب عمارة فوزية : التداخل اللغوي في الأسطورة دراسة تداولية للأثر المعرفي والثقافي، مجلة الآداب واللغات والعلوم الإنسانية ، المجلد 8 العدد 2، جامعة الشلف ، سبتمبر 2025.

<sup>3</sup> نادية العمري : أضواء على الثقافة الإسلامية ، دمشق، سوريا، 1998، ص 16.

المجتمع الذي تولد فيه، وعندما يتم نقل الأسطورة إلى ثقافة أخرى يطرأ عليها تغيرات تتناسب مع المعايير الثقافية الجديدة مما يؤدي إلى تفسير مختلف للشخصيات والأحداث، وعلى سبيل المثال قد يُنظر إلى البطل أو الشرير في الأسطورة بشكل مختلف تبعاً للقيم والمعتقدات التي تميز كل ثقافة عن الأخرى، وبذلك نلاحظ أن الأسطورة مثل أي عنصر ثقافي لا تظل ثابتة بل تتغير وتتكيف مع الحضارة التي تستقبلها، ما يعكس مدى الارتباط الوثيق بين الثقافة والحضارة.

- **اختلاف الأشكال والأساليب السردية:** الأسطورة قد تختلف في شكلها أو أسلوبها بين اللغات المختلفة، واللغة قد تؤثر على كيفية بناء الأحداث أو تطور الشخصيات، وبالتالي على فهم القصة فمثلاً الأسطورة التي تروي بشكل شعبي أو شفهي في لغة ما قد يتم تغييرها لتصبح مكتوبة أو مهيكلية بطريقة أكثر رسمية في لغة أخرى.
- **التأثيرات الدينية والفلسفية:** تعتبر الأسطورة جزءاً من التراث الثقافي والأسطورة والفلسفة تربطهم وشائج قرّبي، حيث اعتبرت الفلسفة أنها اكتشفت في الأسطورة البناء الوجودي والصورة الأصلية، التي تعبّر عن ارتباط الإنسان بالواقع والحياة، ففي الفلسفة اليونانية القديمة كان ينظر إلى الأسطورة كحقيقة في صورتها الرمزية.

وعند ترجمة الأساطير إلى ثقافات ولغات أخرى مثل ترجمتها من الأدب اليوناني إلى العربية أو الإنجليزية، قد تواجه التفسيرات تحديات في ثقل تلك الأفكار الدينية والفلسفية بدقة مثل أسطورة أو ديسيوس من الأدب اليوناني القديم، قد يختلف تفسير صفات البطل بين قراء الثقافة العربية والقراء العرب... فقد يفسر الغرب أوديسيوس بصفاته الرمزية كرمز الإنسانية أو القوة بينما يراه القارئ العربي مرتبطة بالقيم الدينية والفلسفية فالأسطورة ليست سرداً شعبياً فقط بل تمثل صورة رمزية لحقائق فلسفية ودينية، وتظل مفتوحة للتفسير والتكيف مع القيم الثقافية المختلفة وبهذا تبرز الأسطورة كجسر بين الثقافة والفلسفة حيث تتجلى في طياتها رؤى الوجود والحياة التي تنفضها الفلسفة لتكشف وراء الرمزية.<sup>1</sup>

أسطورة **أوديسيوس** (اليونان) ثم ترجمتها إلى العديد من اللغات الأوروبية مثل الإنجليزية والفرنسية مما أثر في تفسير شخصية أو ديسيوس بين الشجاعة والدهاء.

أسطورة **راماينا** (الهند) انتقلت إلى جنوب شرق آسيا (أندونيسيا وتايلاندا) حيث تم تكيفها مع المعتقدات المحلية راماكين في تايلاندا - أسطورة **ايزيس وأوزوريس** تأثرت بالثقافات اليونانية والرومانية حيث تم دمجها مع آلهة مثل سيراميس.

أسطورة **هرقل** (اليونان) تأثيرها امتد إلى الثقافة الرومانية حيث أصبح يُعرف بهيراكليس وتم تعديل الأسطورة لتناسب القيم الرومانية.

<sup>1</sup> المرجع نفسه، 18.

### 3. الأثر التداولي للأسطورة في بناء المعنى :

فقد أثرت الترجمة على المعنى مثل كلمة إله في اللغة الإغريقية فقد تحمل دلالات فلسفية أو روحية تختلف عن دلالاتها في اللغة الهندية أو العربية، هذا التغيير في المفردات يمكن أن يضيف طبقات جديدة في المعنى، أو يغير التفسير التقليدي للأسطورة، مثل في أسطورة أو ديسوس يمكن أن تكون مفردات مثل الذكاء أو الخداع محورية في فهم الشخصية الترجمة إلى لغة أخرى قد تؤثر في الطريقة التي ينظر بها إلى هذه الصفات.

### 4. المفاهيم الرمزية ودورها في تداخل اللغات :

الأساطير مليئة بالرموز التي قد تحمل معاني مختلفة في ثقافات ولغات مختلفة ، هذه الرموز يمكن أن تُترجم بطرق تؤدي إلى معاني إضافية مثلاً الشجرة قد تمثل في بعض الأساطير القوة أو الحكمة بينما في أساطير أخرى قد تمثل ارتباطاً بالأرواح أو العالم الآخر.

وترى طائفة من الباحثين أن الأساطير ليست إلا لوناً من ألوان التصوير البياني لإحساس الإنسان التي تمس أصله، كما يعبر عن الزمن الذي يفتى كل شيء فننسى هذه الأصل المجازي، وتبقى الأسطورة.<sup>1</sup> مثال في بعض الترجمات من اللغة الهندية إلى اللغات الأوروبية يتم تعديل الرموز الدينية أو الروحية ، لتناسب مع المعتقدات المسيحية أو الفلسفية المحلية يظهر التداخل اللغوي في الأسطورة دوراً بالغاً الأثر في تشكيل المعنى الثقافي والمعرفي، حيث يصبح النص الأسطوري أداة حيّة تتفاعل مع السياقات الاجتماعية واللغوية المتعددة، ومن خلال التفاعل بين اللغات واللهجات المختلفة تعيد الأسطورة تشكيل نفسها لتناسب القيم والمعتقدات المتنوعة في المجتمعات المختلفة، مما يعزز من قدرة الأسطورة على الانتقال عبر الزمن والمكان.

إنّ دراسة هذا التداخل تفتح آفاقاً جديدة لفهم كيفية تأثير الأساطير في تشكيل الهوية الثقافية، وتبادل القيم بين الشعوب، مما يساهم في تعزيز الفهم المشترك ويعمق الروابط بين الثقافات، وبالتالي فإنّ دراسة الأثر المعرفي الثقافي للتداخل اللغوي في الأسطورة تُعدّ خطوة مهمة لفهم ديناميكيات التفاعل بين اللغة والثقافة في تشكيل الوعي الجمعي للأفراد والمجتمعات .

### البعد الديني والروحي:

يوصف الدين الذي يعتنقه سكان الصحراء الإفريقية الكبرى على أنه دين إنساني جمعي تقليدي لا ينقل المضمون فقط، بل يشمل الشكل فهناك عملية تنقل العادات والمعتقدات كذلك شفهيًا " فالدين الإفريقي لم يكن مسجلاً في مخطوطات كتابية حتى نختبر هذا التقليد المتوارث. وعلى هذا فإنه لا وجود لمصدر تاريخي قديم في الماضي إنما يكون المصدر في حضور الأجداد الذين يستمرون في الحضور من جيل إلى جيل.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> عثمان حشلاف: الرمز والدلالة في شعر المغرب العربي المعاصر ، فترة الاستقلال ، الجزائر، دط ، 2000، ص 105.

<sup>2</sup> حنا عبود : الميتولوجيا العالمية ، المرجع السابق، ص 11.

وبهذا يتضح أن الدين الإفريقي لم يكن مكتوباً في مخطوطات مثل بعض الديانات الأخرى والكتابة هي التي تحفظه شكل دقيق لكن الذي حل محل الكتابة هو التناقل الشفهي أو الرواية الشفوية جيلاً عن جيل من الأجداد إلى الأحفاد، فإن المصدر الحقيقي للدين هو الأجداد الذين ينقلون الحكمة والعادات والتقاليد وهم الذين يربطون الماضي بالحاضر.

وعند مرور الأساطير من الآباء إلى الأبناء، فإن التغيرات الصغيرة تحدث وتكبر عند توالي الأجيال، فالمجتمع يتذكر ماضي في الأساطير والمهرجانات والشعائر ويكف عن الوجود إن لم يلبي حاجات المجتمع الجديدة فالمجتمع هو أساس الاستمرار والتغيير ... ، ولكن ما معنى هذا ؟ معناه أننا أمام أديان بعدد المجتمعات التي تمارس الاستمرار والتغيير، ولكن هناك سمة عامة يشترك فيها كل الإفريقيين وهي الإحساس بالمجتمع إحساساً مطلقاً أو حقيقة مطلقة كقوة جمعية يمكن أن يضحى المرء بحياته من أجلها.<sup>1</sup>

ومن هذا فإن الأديان الإفريقية متعددة وتخضع للاستمرار والتغير والإنسان يدخل في دورة الحياة ومثل ذلك الفرد قوة حياته وأهميته الجمعية، ففي المجموعات الإفريقية يدخل الولد في المجتمع عندما يطلقون عليه اسم جد من الأجداد وفي سن البلوغ تقام طقوس التسيب، وبعد التسيب يكون هناك زواج وهو ليس جمعاً بين فردين ، وإنما يشمل امتداد عائلتين، والغرض من الزواج هو استمرار الأسرة واستمرار المجتمع والشخص الذي لا أولاد له يفشل في أن يكون صاحب مسؤولية، ولا يستطيع أن يكون جداً، وألا تكون جداً في الديانة الإفريقية تعني الكثير لأنه عن طريق الأجداد ترقى المجتمعات .

"والحاكم (الملك أو الزعيم) في كثير من المجتمعات الإفريقية ليس فقط الرجل السياسي بل أيضاً الرجل المقدس الذي يعتقد أنه سليل المؤسس الأسطوري للمجتمع ويمثل استمرار المؤسس هي الجماعة ، ويتم تسليم المنصب للحاكم عن طريق قرار شعائري للمؤسس الأسطوري للمجتمع يشتمل على الموت والولادة الثانية لكل المجتمع، بالشكل الرمزي الذي يدل على الأصول الميثولوجية، ولا يقوم الحاكم بوظائف فردية فقط بل يمثل أيضاً أجداد الجماعة".<sup>2</sup>

فالحاكم ليس قائداً سياسياً، بل هو شخصية مقدسة، وسلطة لا تقوم على وراثة فردية بل تمتد لتشمل ارتباطه بأجداد الجماعة بأكملها.

فالديانة هي عبارة عن شفاء

<sup>1</sup> المرجع نفسه .

<sup>2</sup> حنا عبود : الميثولوجيا العالمية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، المرجع السابق ، ص 13.

فقد سئل أحدهم من أين يبدأ فهم دين شعبه؟ أجاب أحد أعضاء مجتمع الكونغو أبداً بإنسان مريض يبحث عن الشفاء فالبحت عن الشخص في المجتمع أساس الدين الإفريقي ، وفي إفريقيا التقليدية يعتقدون أن المرض ينتج عن عامل شخصي مثل سخط جد من الأجداد أو روح شرير أو عن طريق السحر والسحر باعتباره مصدراً للاضطراب الشخصي والجمعي، قد يكون تجلياً للخطيئة أو اكتشاف لأسباب المرض يرجع الناس إلى النبوءة عن طريق العرافة لمعرفة من المرشحين للزعامة.

والعرافة تستخدم للبحث عن سبب المرض، وقد تتخذ العرافة أشكالاً كثيرة في إفريقيا بعضها يشمل مراقبة العلاقة بين الأشياء، وبعضها يقوم على حضور الروح المشحونة على شخص العراف ومن خلاله أو من خلالها تنطق وتحدث وتفسر الأسباب، والعراف ينظر إليه باعتباره نبياً، ويتم العثور على سبب المرض ومعالجته عن طريق نباتات يغترف علمياً بأنها ذات خصائص علاجية<sup>1</sup>.

وتؤمن المجموعات الإفريقية برب أعلى ، وهو خالق في أساطير النشأة (مثل مهرجان الرب الخالق أي في *Ife* في نيجيريا ) ويتضرعون له في الظواهر المدمرة كالجفاف والوباء، وإنَّ الرب الأعلى عمله هو الخلق وترك هذا الكون لمعبودات أقل منه : " وإنَّ العبادة النظامية للمجموعات الإفريقية التقليدية في معظمها تعود إلى المعبودات الأقل شأنًا من الرب الأعلى وهي مرتبطة بمحليات خاصة كالعائلة والمجموعات المهنية أو المحاصيل أو النشاطات أو الأمراض أو الأبطال (...). وعبادة هذه الأرباب الصغيرة وبخاصة في إفريقيا الغربية تتركز في معابد معينة ويقوم بها كهنة ينقدون القرابين والتقدميات من البطاطا الحلوة أو الفرائج أو الماعز أو الأبقار الذين كرسوا أنفسهم لهؤلاء المعبودات، قد تستحوذ عليهم تلك المعبودات في مناسبات خاصة<sup>2</sup>.

يعتبر الدين والخبرة الدينية الأساس والمنشأ الذي تنشأ حولها الأساطير والطقوس وتلعب دور المرشد والمنظم للعبرة الدينية وتدفع عن الفرد وطأة المجاهدة المباشرة مع الإحساس بالقدسي فهنا تقوم الأسطورة الجمعية .

بترميز الخبرة الدينية ... ثم تأتي الطقوس لتلعب دور المظهر للانفعالات الدينية العنيفة ويتبلور المعتقد الديني يدا بيد مع الأساطير التي تعيد تقديم الانفعال الديني إلى الوعي، وقد تحول إلى معتقد<sup>3</sup>.

- إنَّ نشوء الأساطير تتكون من الخبرة الدينية وتحول الأساطير تلك الخبرة الدينية من تجربة شعورية إلى صورة رمزية وينشأ في الأخير ما يسمى بالمعتقد الديني .

تنشأ الأسطورة عن المعتقد الديني، وتكون بمثابة امتداد طبيعي له فهي تعمل على توضيحه واغتنائه، وتثبتته في صيغ تساعد على حفظه، وعلى تداوله بين الأجيال، كما أنها تزوده بذلك الجانب الخيالي الذي يربطه إلى

<sup>1</sup> المرجع نفسه ، ص 14

<sup>2</sup> نفسه.

<sup>3</sup> فراس السواح: الأسطورة والمعنى (دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية) ، المرجع السابق ، ص 24.

العواصف والانفعالات الإنسانية، ومن ناحية أخرى فإنَّ الأسطورة تعمل على تزويد فكرة الألوهية بألوان وضلال حيّة، لأنها ترسم للآله صورها التي يتخيلها النَّاس، وتعطيها أسماءها وصفاتها وألقابها.<sup>1</sup> تنشأ الأسطورة من المعتقد الديني باعتبارها امتداداً له، كما تضيف إليه بُعداً خياليا يثير العواطف الإنسانية، تحي الأسطورة فكرة الإلهية وجعلها أقرب إلى النَّاس.

### العلاقة بين الإنسان والطبيعة :

لم تكون إفريقيا نظاماً أسطورياً في عام واحد، لأنَّ إفريقيا ليس لها شعب أو تاريخ أو لغة واحدة، فإنَّ الشعوب الإفريقية لها أكثر من 2000 لغة.

وقارة إفريقيا قارة واسعة وهي موطن لكثير من الثقافات، ولا يوجد نوع أو مجموعة من الأساطير والخرافات التي توحد هذا النوع السكاني، إلا أنَّ الجماعات والمناطق الثقافية المختلفة تشترك في بعض العناصر الأسطورية الشائعة مثل الأساطير من أجزاء أخرى من العالم تعكس تلك الموجودة في إفريقيا معتقدات كجزء هام من الحياة اليومية، تتعامل بعض الأساطير الإفريقية مع موضوعات عالمية مثل أصل العالم ومصير الفرد بعد الموت. إنَّ أساطير الشعوب الإفريقية تعطينا لمحة عن طريق حياتهم ووجهات نظرهم للكون، فكل ثقافة لها أساطيرها تساعد على فهم الظواهر التي تؤثر على حياتهم اليومية، وتوجد موضوعات ورموز مشتركة بين الأساطير المختلفة التي تتناول خلق الكون، تتعامل الأساطير الأخرى مع الأبطال والآلهة وأصول البشر وكذا الموت والآخرة، وتغيّر الفصول .

فبالأساطير تتعامل مع أصل البشر والفيضانات والشمس والقمر والسماء والجحيم والطوفان . وهناك كثير من الحيوانات في إفريقيا من الفهود والشامبانزي والفيلة إلى مجموعة واسعة من الطيور والأسماء، تمتلئ الكثير من الميثولوجيا الإفريقية بها والتي لعبت دوراً بارزاً في الأساطير الإفريقية بسبب عيش الشعوب الإفريقية على مقربة من الحيوانات البرية التي تشترك في أرضها، في العديد من الأساطير الإفريقية وينسب النَّاس مشاعر ورغبات الإنسان إلى الحيوانات ويستمدون السلوك الأخلاقي من تصرفات الحيوانات.<sup>2</sup> بعض هذه الحيوانات الشَّعبية تشمل الثعبان، العنكبوت والحرباء والظباء، وغالباً ما يكون الثعبان مؤلهاً أو ينسب إلى قوى إلهة في الأساطير الإفريقية إنَّ رواة القصص الأفارقة وصانعي الأساطير قد أظهروا براعتهم، وقدراتهم على الإبداع في قصص لا تعد ولا تحصى فسروا بها أصل الموت.

ففي أسطورة الكونو *KONO* يكون الموت هو القوة الأصل في العالم ويسبق وجود الرب، وعند المالوزي *MALOZI* يبدو الرب فاقداً للقوة التي تمكنه من السيطرة على الإنسان، أمَّا عند الإيجو *IJOW* فإنَّ

<sup>1</sup> المرجع نفسه ص 25.

<sup>2</sup> (بتصرف) أساطير افريقية .

الإنسان قد قرر بنفسه مصيره الخاص قبل مجيئه إلى العالم أمّا الوابانكو *WAPANANGUA* فإنهم يمتلكون رؤية خيالية غريبة تقول بأنّ الأرض قد خلقت من براز النمل في حين يعتبر اليوروبا *YORUBA* الرب مسؤولاً ومذنباً عن التشويّهات التي تلحق بالإنسان. وجود هذه الأفكار تثير الانتباه لأنها تلقى الضوء على علاقة الإنسان بالرب، وعلى محاولاته للتواصل إلى نوع من التفاهم مع القوى الخارقة للطبيعة التي لا يمكن تجنبها، وبالرغم مما سبق فإنّ الأساطير الإفريقية تتضمن الكثير من الأفكار المألوفة والمتشابهة التي وردت في التراث الشرقي، حيث يؤمن اليوروبا بأنّ الماء خلّق قبل اليابسة، ويؤمن الفانك *FANG* بأنّ هناك خليقة أصلية قد لعنت ودمرت ليس بالماء ولكن بالنار أمّا المالوزي *Malози* فلديهم قصّة تذكرنا بقصّة برج بابل حيث يحاول رجل أن يصل إلى الرب بواسطة بناء برج عال في السماء.<sup>1</sup>

### الرمزية والأسطورة :

لا شك أن هناك مساءلات عديدة بشأن الأسطورة من حيث معناها ومغزها، ومن حيث مصادرها الأولى التي أنشأت في ظلّها، وكذلك ماهية الأسطورة في حدّاتها " فإنه ليس من السهل أن تقف عند تعريف دقيق وشامل للأسطورة في ظل هذا التعدد والتنوع الذي تُمثله تلك المشارب الإنسانية عبر الأزمنة والأحقاب من منطلقات رؤي فكرية متعدّدة، ومع هذا يمكن أن تقف عند الملامح العامة التي تقرّنا من التعامل مع الأسطورة من حيث الماهية والمصطلح بالدرجة الأولى " .<sup>2</sup>

الأسطورة مفهومها واسع ومتشعب ومتنوع فيصعب علينا تعريفها تعريفًا دقيقًا فقد اختلفت الآراء حول تعريفها من حيث معناها ماذا تعني؟ ومعناها يعني الهدف منها ومصدرها من أين نشأت ؟ . فهناك من يرى أن الأسطورة " في كونها واقعة ثقافية بالغة التعقيد، تمكننا أن مباشرها ونفسرها في ضوء متطورات متعدّدة ، فهي عند بعض الدراسيين المعاصرين مجموعة من الحكايات الطريفة المتوارثة من أقدم العهود الحافلة بضروب من الخوارق والمعجزات التي يختلط فيها الخيال بالواقع ويمتزج عالم الظواهر بما في ذلك من إنسان وحيوان ونبات ومظاهر طبيعية ، لعالم ما فوق الطبيعة من قوى غيبية ، اعتقد الإنسان بالوهيتها فتعددت في نظرة الآلهة تبعًا لتعدّد مظاهرها المختلفة " .

فبالأسطورة ليست خيالية بل هي ظاهرة ثقافية معقدة وهي جزء من ثقافة الإنسان وعقائده، ونظرتة إلى الحياة والكون وتفسّر الأسطورة من منطلقات عدّة وجوانب مختلفة الدين والتاريخ وعلم النفس وغيرها.

<sup>1</sup> (بتصرف) أساطير إفريقية

<sup>2</sup> أعمال ملتقى الأدب والأسطورة ، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة باجي مختار، عنابة، 2007، ص 14.

كما تمزج الأسطورة بين العالم الطبيعي (علاقة الإنسان بالطبيعة) والعالم الغيبي (علاقة الإنسان بالقوى الخارقة والآلهة) ففي القديم كان الإنسان يُفسّر بعض الظواهر الطبيعية كالمطر والرعد والبرق بوجود قوى عينية تتحكم فيها<sup>1</sup>.

وكذلك الأسطورة تمزج بين الخيال والواقع، فهي تضيف إلى الإنسان والحيوان والنبات قوى غيبية تجعلها مختلفة عن الواقع اليومي.

الأسطورة من مزاياها تفسّر وتعلل الظواهر، وتستعين بالخرافة والخيال كما يذهب مرسيا إليا إلى أن الأسطورة "... تروي الأسطورة كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود بفضل خوارق الكائنات الماورائية سواء كانت الحقيقة كلية أو جزئية كالسلوك الإنساني، فهي دوماً حكاية خلق تحكي لنا كيف كان إنتاج شيء، وكيف كان وجوده، أمّا أشخاص الأساطير فهم كائنات ما ورائية عرفوا بما صنعوه في الزمن العجيب للبدايات "

فالإنسان القديم فسّر والأمور الغامضة في الطبيعة بالأسطورة حيث لم تكن لديه علوم يفسّر بها ظواهره حتّى يصبح العالم واضحاً ومفهوماً فلجأ إلى الأسطورة.

وتلجأ كذلك الأسطورة لكثير من الخيال، يعمل هذا الخيال على تفسير ما يعجز العقل عن تفسيره. ومرسيا إلياد من أبرز الباحثين في دراسة الأساطير، يرى أن الأسطورة تروي تاريخاً مقدساً وتروي أحداث وقعت في الزمن البدائي المقدس وهي ذات طابع ديني، هذا الزمن مختلف جداً عن الزمن الحالي.

فالأسطورة قد تكون كلية تتحدث عن خلق الكون كله وجزئية تفسّر سلوك إنساني أو عادة اجتماعية. أمّا عن شخصيات الأساطير هم كائنات فوق طبيعية (آلهة أنصاف آلهة أرواح...) عُرفت بأعمالها العظيمة في البدايات وهو الزمن المليء بالعجائب والخوارق.

" وهي أيضاً حكاية شعبية أو أدبية، موضوعة حول كائنات فائقة المزايا الإنسانية والحوادث المعبر عنها تحت غطاء الخرافة والقيم لمجتمع ما أو آخر والأكثر عبقرية أنّها تجسد نبية العقل البشري المسؤول الأوّل عن إنتاج هذه الأسطورة التي عبرت عن مظاهر العجز البشري أمام الكثير من الظواهر التي تحيط به (...) ومن خلالها يفسّر الإنسان ويقدم تأويلات يكبح غريزة حب المعرفة والاطلاع "<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> أعمال ملتقى الأدب والأسطورة، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن المرجع السابق، ص 15.

<sup>2</sup> أعمال ملتقى الأدب والأسطورة، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، المرجع السابق، ص 15.

## ثانيًا : الأرض في المخيال الأسطوري

إنَّ الأساطير تترجم تفكير الإنسان وتجاربه، وترسم فكره وخياله إنها تحمل الرؤى الفردية والجماعية للإنسانية كلّها، لقد ظهرت الأسطورة للوجود لتحقيق أحلام الإنسان، وتجسّد طموحاته، أفكاره، وترسم علاقاته مع الكون الخارجي مند وجد .

لقد استأنس الفكر الإنساني بكلّ الإجابات التي كان يفترس بها ظواهر الكون، وجعلته يواصل مسيرته في الوجود. فمنذ أمد بعيد، عاش الإنسان الأسطورة وجسّد فيها كلّ متطلباته الاقتصادية والاجتماعية والفلسفية والنفسية، لذلك اعتبرت الأسطورة أكثر صور التفكير البشري تعبيرًا عن حقيقة ما حدث مع الإنسانية ، فقد عاش الإنسان، وجسّد طموحاته، أفكاره، ورسم علاقاته مع الكون الخارجي مند وجد .

### مفهوم الأرض ودلالاتها الرمزية :

تعدّ الأرض في المخيال الأسطوري والرمزي أكثر من مجرد حيّز جغرافي أو مادّة صلبة، إنها كيان حيّ ورمز كوني شامل يتداخل مع الأبعاد النفسية، الاجتماعية الدينيّة، التاريخيّة للشعوب في الفكر الأسطوري، تمثل الأرض (الأم الكبرى) التي تلد وتغني وتحتضن الموتى ممّا يجعلها مركزًا للخصوبة .

فقد عاش الإنسان على الأرض، وكان محاطًا بكائنات غيبية أو ووجود الأرواح في الأشياء الماديّة كالأشجار والحجارة، وممّا في مظاهر الطبيعة كالرياح والأمطار والنجوم والكواكب، ثمّ أضحت هذه الطبيعة في نظرها (آلهة) يعزي إليها التحكم بمقدرات البشر والسيطرة على مجريات الكون<sup>1</sup> (...) وحين نريد التوقف عند الأسطورة والبحث عنها في التراث .

فإننا يجب أن نتوقف عند الرموز والظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والنجوم، وصلتها بالليل والنهار والظلام والصباح والحرب والخصب ... فنحن نعرف من خلال طقوس الشعوب القديمة كيف كانت لهم مقدرتهم القوية على التفكير الرمزي ...<sup>2</sup>.

لقد أضاف ماك لينان أهمية كبيرة للأرض الأم في المجتمعات الزراعية فهي من مظاهر الخصوبة، فهي التي تقدّم له القوات في حياته، وتضم رفاته عند مماته، لقد كان القدامى يعبدون الكواكب كالشمس وأضفوا عليها صفة الأمومة، واعتبروا الربة والإلهة .

فالأرض تحمل عدّة دلالات في المخيال الأسطوري ، فهي باعتبارها منبع للحياة، وهي التي استهلّت منها الحياة، وهي الأم الأولى وهي عبارة عن موضع تجدد الحياة وانبعاثها الدائم .

<sup>1</sup> لويّة جبايلية : الأسطورة والفكر العربي، مجلة تاريخ العلوم، العدد السادس، جامعة باتنة 1، ص 334.

<sup>2</sup> لويّة جبايلية : الأسطورة والفكر العربي، المرجع السابق، ص 335

فالأرض هي مجموعة من القوى والطاقات المقدسة مثل التربة والحجارة والأشجار والماء والظلال والنبات فالأرض هي الأم الكبرى ومصدر الحياة.

### 1. الأرض كأم ومصدر للخصوبة (الرمزية الأنثوية) :

- الأمومة الكبرى في العديد من الأساطير البدائية والزراعية تعبد الأرض كأم (مثل جيا عند الإغريق) فهي مصدر الحياة التي تنبت منها النباتات والكائنات .
- الخلفية الزراعية فارتبطت في المخيال الجمعي بالخصوبة في مقابل الشمس التي تمثل التلقيح (الذكورة) هذا التزاوج بين السماء (الذكر) والأرض (الأنثى) هو أساس أساطير التكوين والإنتاج الزراعي.

### 2. الأرض رمز للبقاء والهوية (الرمزية الاجتماعية والسياسية) :

- الانتماء والنبات تمثل الأرض (الوطن) والأساس الذي يرسخ هوية الجماعة استلاب الأرض بعين استلاب الوجود الاجتماعي والثقافي للشعوب.
- الارتباط بالبقاء في الأساطير الأرض هي القيمة الثابتة التي تضمن استمرار البقاء والارتباط بما هو ارتباط بالحياة نفسها.

### 3. الأرض كرحم ومقبرة (الرمزية النفسية والميتافيزيقية) :

- دورة الحياة : الأرض هي المكان الذي يبدأ منه الإنسان (الخلق من طين) وإليه يعود (الدفن) ممّا يجعلها رمزًا لدورة الحياة والموت والبعث.
- الاحتضان ينظر إليها كرحم أرضي يحتضن الموتى ممّا يضيف عليها طابعًا روحيًا ونفسيًا يربط الأحياء بأسلافهم.<sup>1</sup>

### 4. الأرض في الرمزية الحديثة (الشعر والأدب) :

- رمز للقاء والتضحية في الخطاب الشعري المعاصر وخاصةً الفلسطيني تحولت الأرض إلى رمز للمقاومة، التضحية، العشق، ومتجاوزة كونها مجرد مكان.
- المركزية الروحية تصبح الأرض في المخيال الشعري مركز الكون الذي يجمع الشتات ويعيد تشكيل الشخصية الوطنية والوجدانية فالأرض في المخيال الأسطوري هي تجسيد للمقدس والمعطي وهي الحيز الذي تتحول فيه المادة إلى رمز ينبض بالروح، وتتداخل فيه أبعاد .

إنَّ الأساطير تترجم تفكير الإنسان وتحاربه، وترسم فكره وخياله إنها تحمل الرؤى الفردية والجماعية للإنسانية كلها، لقد ظهرت الأسطورة للوجود لتحقيق أحلام الإنسان وتجسد طموحاته، أفكاره، وترسم علاقاته مع الكون الخارجي منذ وجد.

<sup>1</sup> المرجع نفسه ، ص 20.

لقد استأنس الفكر الإنساني بكل الإجابات التي كان يفسّر بها ظواهر الكون وجعلته يواصل مسيرته في الوجود.

منذ أمد بعيد قبل أن يكتشف الإنسان الكتابة عاش الأسطورة وجسّد فيها كلّ متطلباته الاقتصادية والاجتماعية والفلسفية والنفسية، لذلك اعتبرت الأسطورة أكثر صور التفكير البشري تعبيراً عن حقيقة ما حدث مع الإنسانية في طفولتها البكر .

والإنسان العربي كغيره من النّاس في الأمم جميعاً، عاش الأسطورة وتفاعل معها ضمن سياقات اجتماعية وثقافية وفلسفية عبرت عنه وحدّدت توجهاته، (ومن الحقائق المسلم بها أنّ الأمة العربية خلال فترة زمنية طويلة) فقد كان الإنسان محاطاً بكائنات غبية أو وجود الأرواح في الأشياء المادية كالأشجار والحجارة، ومّا في مظاهر الطبيعة كالرياح والأمطار والنجوم والكواكب، ثم أضحت هذه الطبيعة في نظرها آلهة يعزي إليها التحكم بمقدرات البشر والسيطرة على مجريات الكون فكان لا بد من كسب ود هذه الآلهة فالشعائر والقربان .

وحين نريد التوقف عند الأسطورة والبحث عنها في التراث العربي فإننا يجب أن نتوقف عند الرموز والظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والنجوم وصلتها بالليل والنهار والظلام والصباح والحرب والخصب .<sup>1</sup>

ونرى ما قدّم ماكس مولر حول بعض الرؤى الشعائرية التي يتحدّث عنها حول التعبير الشمسي والتعبير الربيعي ، وأنهما من أكثر الأمور بدائية في نمو الميثولوجيا، أمّا ماك لينان فهو يضيف أصلاً ثالثاً للأصليين السابقين له أهمية كبيرة في أصول المعبودات القديمة في المجتمعات الزراعية هو الأرض الأم لما فيها من مظاهر الخصوبة، فهي التي تقدّم له القوت في حياته وتضم رفاته بعد مماته<sup>2</sup>، ويبدو واضحاً أن كلا المنظورين ينطبق على معبودات العرب القدامي غير أنّهُ من الملاحظ أن جميع معبودات العرب كانت من الكواكب، وكانت الشمس أهمها على الإطلاق أمّا الأرض فلم تكن بذات الشأن لأنّ المجتمعات العربية لم تكن صاحبة زراعة يعتد بها ويسبب ذلك يفسّر اتجاههم إلى الشمس واهتمامهم بها، لأنها أظهر في حياة الإنسان فخلعوا عليها صفة الأمومة واعتبروها الربة والآلهة الأم، وهناك من يربط بين هذا الأمر وسر تأنيث الشمس في اللغة العربية خلافاً لما ورد في لغات العالم.

ونظراً لاختلاف المجتمع العربي المبتدئ في مجتمع الشمس والصحراء عن سائر مجتمعات الزراعة الأرض رمزاً للأمومة والخصوبة .

وكما عبد العرب الشمس، فقد أشار العلماء أيضاً أنهم عبدوا آلهة أخرى من صفة الذكورة وأنّ الآلهة بالنسبة إليهم كالبحر ذكوراً وإناثاً فعبدوا الشمس باعتبارها أمّاً وعبدوا القمر باعتباره أباً، وقد طفر الباحثون في

<sup>1</sup> آثار البلاد وأخبار العباد ، المرجع السابق ، ص 20.

<sup>2</sup> لوزة جبايلية، الأسطورة والفكر العربي، المرجع السابق ، ص 335

نصوص مختلفة بالخبر الذي يتعرض إلى أسطورة زواج القمر بالشمس كما أن في عربيتنا نقع على لفظ اقتران الشمس بالقمر وفي هذا معنى الازدواج.<sup>1</sup>

حين نرى البيئة العربية الإفريقية نرى أنها بيئة صحراوية ممتدة، لم تكن بها تضاريس كثيرة يمكن أن توحى برؤى مختلفة أو تُعطي فرصة كبيرة من التأمل أكثر فالعربي الإفريقي كان دائم الترحال، ولم يكن له الوقت الكافي ليألف المكان والاستقرار فيه، ولم يُقيم علاقة دائمة مع مكان واحد من أجل البحث عن الكأ والماء، فالتأمل غائب عن علاقته بالطبيعة، ربما أن التأمل هو منطق الأسئلة الفلسفية التي تطرح أعظم التصورات لعلاقة الإنسان بالطبيعة التي تنتج عنها الحالة الأسطورية التي وجدت عند الفكر اليوناني وعلاقة العربي الإفريقي بالمكان علاقة مؤقتة وأكثر، ما كان يمكن أن يقدمه وفاء للمكان الذي كان مرّ به يوماً مرة أخرى أن يقف على أطلاله ويكي فيه حبيبته أو أصحابه وخلانهُ ثم يغادر إلى مكان بعده للبحث عن مقتضيات الحياة التي تنتهي فرمال الصحراء الممتدة والمسطحة جعلته ينتج شعراً سلساً، ولا ينتج أسطورة بالإضافة إلى عامل الحرارة الذي قد يبعث على الكسل والخمول أكثر، مما يبعث على التأمل والتفكير، فالشعر ينساب كشلال شعوري لا يحتاج إلى تضاريس فكرية معقدة ومركبة كالأسطورة.<sup>2</sup>

هذا بعض مما كنت أخمن فيه، وكان يبدو لي بين الحين والآخر غير مقنع على أساس أن شعوباً وأممًا كثيرة سكنت تضاريس جبلية وتعالقوا معها، ولكنهم لم ينتجوا الأسطورة..

## الأرض كأصل للخلق :

في الأساطير العالمية والإفريقية بعامة وتظهر سيطرة الأسطورة على العقل البشري، وذلك من خلال قصة الخلق كما وردت في التوراة كما وردت في سفر التكوين .

وهذا الموضوع حضر بقوة في الميثولوجيات القديمة مثل السومرية نجد أن الكون في حالة عماء *Chaos* ولم تكن سوى المياه الأولى نمو *Nammce* التي انبثق عنها الوجود، حيث قامت بإنجاب (إن) إله السماء و (كي)

<sup>1</sup> لوزة جبايلية : الأسطورة والفكر العربي، المرجع السابق، ص 336.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 337.

إلهة الأرض المؤنثة والتي نتج عن زواجهما إنليل (إله الهواء) الذي قام بفضلهما بعدما كانا متحدث وبفصلهما أنشئت السماء والأرض، وتم إنجاب (نانا) إلهة القمر لتتار بها الأرض والسماء والتي أنجبت بدورها أوتو إله الشمس، وبهذا تكون شروط الحياة قد توفرت وهيئت البيئة المناسبة لخلق النبات والحيوان والإنسان .

أمّا في الميثولوجيا المصرية فنجد أن العالم قبل أن يخلق كان عبارة عن امتداد مائي يمثله نون *Nun* حسب أشهر أسطورة وهي أسطورة " عين شمس " ومن هذا المحيط ظهر أتوم معبود عين شمس الذي توجه إلى خلق الآلهة عن طريق الاتحاد مع ظله فأنجب شو *Shu* الذي سيصبح إلى الهواء وتفنوت *Tefrut* وهما بدورهما أنجبا جب *Geb* الأرض نوت *Nut* السماء وعن هذين الاثنين ولد أربعة آلهة إيزيس *Isis* أوزيريس *Osiris* ونفتيس *Nephtys* وست *Seth*.<sup>1</sup>

وفي الميثولوجيا الهندية نجد أن العالم كان غامضاً في ظلام لا يمكن الوصول إليه إلى أن ظهر بروميثور الإله الأكبر بمادة التكوين فقام بخلق الماء من ذاته وألقى فيه نطفة والتي أصبحت بيضة وعند خروج براهما من هذه البيضة كسرت نصفين فشكّل أحدهما الجنة والجزء الثاني الأرض والسماء وما بينهما من جهات وبحار ثم بدأ بخلق طائفة البراهمة التي أخرجها من فمه وطائفة الكشنزي التي خلقها من عضده وطائفة " الويشا " من فخذة وأخيراً طائفة الشودزا التي خلقها من رجله.

## 2. تمثيلات الأرض في الأساطير العالمية (مدخل مقارن مختصر)

### خصوصية التصور الإفريقي للأرض :

تعدّ صورة إفريقيا السمراء في الذهنية العربية المعاصرة علماً مجهولاً وقضاءً ملفوفاً بالخرافات والأساطير، ومحاطاً بالتالوث الأسود المرعب وهو التخلف والفقر والمرض، ومن الملاحظ أنّ هناك العديد من الروافد التاريخية والثقافية والاجتماعية والإعلامية التي أسهمت في تشكيل تلك الصورة النمطية وبناء تمثيلات ذهنية حول (إفريقيا)، غارقة في السلبية والسوداوية سواء أكانت تلك التمثيلات متعلقة بالأرض أم متعلقة بالإنسان ممّا أدّى إلى صعوبة بناء جسور التواصل مع إنسانها وبيئتها وتاريخها وحضارتها، واستثمار كنوزها ومقدّراتها وإمكاناتها، وقد حال ذلك دون تأسيس أي معرفة علمية موضوعية حولها، فأضحت معه الهوة بين العرب وإفريقيا عميقة جداً، تزداد اتساعاً وتنافراً وتعقيداً يوماً بعد يوم، بالرغم من القرب الجغرافي، والتقارب الثقافي وعمق العلاقة التاريخية، ووجود الكثير من القواسم المشتركة بينهما .

<sup>1</sup> أ. راوية زعموشي : البنية الميثولوجية للقصة التوراتية قصة الخلق أمودجا .

تعود مصادر التمثيلات الذهنية السلبية حول إفريقيا إلى أسباب تشكل الصورة السلبية الماثلة في المخيال العربي حول إفريقيا إلى عدة أسباب متشابكة ومعقدة ومتراكمة، بعضها ذاتي ، وبعضها الآخر موضوعي حيث يتداخل التاريخي مع الجغرافي والثقافي مع الديني والاجتماعي مع الإعلامي، وغيرها من العوامل الأخرى وهو ما من شأنه أن يجعل المشهد أو الصورة في غاية التعقيد والغموض والالتباس، وفي هذا الإطار يمكن تفكيك الصورة الرائجة ومحاولة اختزالها في الأسباب الآتية :

### أسباب تاريخية وجغرافية :

فبعيداً عن التفاصيل الدقيقة ، فإنَّ هناك عدداً لا بأس به من الباحثين في التاريخ يؤكدون على أنَّ العيب الأساس في الأدب الجغرافي العربي هو خضوعه في كثير من معلوماته ومصادره للنظريات العلمية الموروثة عن علماء اليونان، خصوصاً ما كتبه عالم الجغرافيا المعروف (بطليموس) فيما يعرف بـ (نظرية الأقاليم السبعة) وما أصَّل له الطبيب الإغريقي (جالينوس) في نظرية الأخلاط والأمزجة وأثرها اعتدال البدن واعتلاله، وتأثير الهواء في البدن .

هذان العالمان اللذان كان لهما دوراً كبيراً في بناء وتشكيل تصورات العرب وأحكامهم حول إفريقيا السمراء وشعوبها ومعتقداتها وتاريخها، وخلاصة رأيهما في ذلك من النَّاحية الجغرافية والطبيّة هو استحالة السكن في الأقاليم الحارة الجنوبية، وأنَّ الحياة تكاد تكون منعدمة، جنوب خط الاستواء ، لاعتبارات عدة أشارا لها فيما دَوَّاه في كُتُبهما.

وقد تسربت هذه الصُّور على الجغرافيين العرب، وأضحت أساساً معرفياً لتشكيل صورة السود في المتخيّل العربي، نلتمس بشكل واضح على سبيل المثال فيما كتبه (الشريف الإدريسي)، وهو لم يزر المنطقة أبداً متأثراً بجالينوس وبنظريته العنصرية لسكان إفريقيا حيث يقول : " وأما أهل الصَّحارى من الزنج والجشة والثوبة وسائر السودان الذين سبق ذكرهم فلقلّة الرطوبة البحرية وتوالي إحراق الشمس لهم وممرها عليهم، تفلست شعورهم، واسودّت ألوانهم، وأنتنت أعراقهم، تقشفت جلود أقدامهم، وتشوّ خلقهم، وقلّت معارفهم وفسدت أذهانهم، فهم في نهاية الجهالة واقعون وإليها ينسبون ، وقلّما أبصر منهم عالم أو نبيل.

وإنما يكتسب ملوكهم السياسة والعدل بالتعليم من أقوام يصلون إليهم من أهل الإقليم الرابع (جزيرة الأندلس) أو الثالث لدول حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويضيف المقرئزي واصفاً الأفارقة أيضاً : أنهم شرار النَّاس وسباع الإنس، وتتنو الرائحة، ويأكل بعضهم لحم بعض<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ص 18-19.





## الفصل الثاني: صورة الأرض في الأساطير الإفريقية

تمهيد :

منذ أن فتح الإنسان عينه وجد نفسه محاطاً بظواهر طبيعية غامضة أراد تفسيرها باستعمال أشكال مختلفة من أشكال التعبير، واعد الأسطورة من أقدم أشكال هذا التعبير فتعد الأساطير وسيلة لفهم أسرار الوجود والكشف عن أصل الإنسان والطبيعة وعكست معتقدات الشعوب، ومن بين هذه الأنواع من الأساطير أساطير الخصب والنماء التي ارتبطت بالأرض والزراعة.

كما مارست المجتمعات طقوساً شعبية لغرض الحفاظ وصون الهوية والانتماء لهذه الأرض باعتبارها كيان جغرافي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإنسان ومن هذه الطقوس نجد طقس القايمة وطقس وضع الفليو في الماء وطقس تحزام الكلبة، والمجتمعات الإفريقية من أكثر المجتمعات المحافظة على قيمها الأصلية وفلسفتها الخاصة وعمقها التاريخي المرتبط بأرضها وثقافتها.

### الأرض بين القداسة والخصوبة :

الأرض هي الأم الأولى، والجسم الذي يحتضن جميع الأجسام، فعلاقة الإنسان بالأرض (التراب) أكثر من أن تكون تاريخاً وعادة وألفة وعبوراً، إنها علاقة كينونة وصيرورة.<sup>1</sup>

تحيط الأرض الأم بجسم ابنها وتتخطاه، فيها وبها يتكوّن ويدوب منها يظهر وفيها يغيب، في الأرض بُعدٌ خفيٌّ لا يمكن رده إلى مجرد المادية وهي بوصفها المنشأ والمآل الأكثر تأخياً مع الجسم الإنساني، والأكثر غموضاً، إنها النشأة الأولى والدهشة الأخيرة.<sup>2</sup>

ألا فليرى صانع المطر الأرض لكي تصير حسناء .

ألا فليرى صانع المطر الأرض لكي تثمر وتهب أولادها، والعالم كلّ ثمار جسمها، فيتوفر له القوت سخياً، ألا فلينكح أبونا الشمس أمنا الأرض كي تثمر فيكون الرزق وفيراً، ويحيا أطفالنا ليصبحوا يغفلون ليصبحوا مع آلهتهم.

لقد بجّل الكثير من أقوام أمريكا الشمالية الأصليين الأرض وكرّموها، وتحدّثوا عن قدسيتها، ففي مطلع القرن 20 العشرين كان واحداً من هنود الشيين يشرح لأحد الزوّار.<sup>3</sup> إننا نحيا بالأرض ... ولا وجود لنا بدونها ... إنها تغذيها وترزقنا، منها تنمو الثمار التي نطعمها والعشب الذي يُطعم الحيوانات التي نقتات بلحومها ... منها تنبجس ، وعليها تجري المياه التي نشر بها .

إننا نمشي عليها ، وما لم تكن مستتبّة راسخة فلا حياة لنا ... ولم يتكلم عن الأرض شعب بعينه ، فإنّ أغلبية الشعوب تحدّثت عن الأرض بهذه الحميمة، وذلك والتعاطف الوجداني العميق فعلى مر الشعوب، وعبر الثقافات جميعاً، ظلّت الشعوب متمسكة بتصوراتها عن الأرض - الأم المقدّسة، ولم تنقطع الصلّة بهذه التصورات إلا مع احتياج ما يعرف بالثورة الصناعية .

فحري بنا أن نسعى ونحن نستهل القرن الواحد والعشرين أن نسعى إلى فهم هذه التصورات ... فهي تفضح لنا في المقام الأوّل عن حقيقة تظل محتجبة بأي لغة غير لغة الأسطورة والرمز .

<sup>1</sup> محمود درويش، من خطبة الهندي الأحمر - ما قبل الأخيرة - أمام الرجل الأبيض ، أحد عشر كوكباً ، دار العودة ، بيروت ، 1993 ، ص 40.

<sup>2</sup> أدونيس ، موسيقى الحوت الأزرق (الهوية ، المتابة ، العنف) دار الآداب ، بيروت ، 2002 ، ص 264.

<sup>3</sup> المرجع نفسه ، ص 264.

### الأرض مصدر الحياة :

رأى الإنسان منذ أن فتح عينيه على هذا الكون العجيب ظواهر طبيعية كثيرة لم يفهم أسرارها العجيبة فأطلق العنان لخياله الخلاق الذي لم يخنه، واستطاع أن يلجأ إلى توليد الأساطير التي أراحته من عناء التفكير هدأت من رَوْعه وقلقه تجاه مختلف ظواهر الطبيعة المحيطة به.<sup>1</sup>

تحدثت الدكتورة في الفقرة عن تفكير الإنسان القديم وتفسيره للظواهر الطبيعية، فقد أرجعها إلى قوى خارقة وكائنات عظيمة تتحكم في هذه الظواهر، وبالتالي ظهرت الأساطير التي ساعدت الإنسان على التخلص من الخوف والقلق.

يروى ميرسيا إلياد أن الأسطورة " قصّة مقدسة تروي حدثاً وقع في الزمن البدئي، الزمن الأسطوري وبعبارة أخرى تروي لنا كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود بفضل كائنات عليا لا فرق إن كانت هذه الحقائق كلية كالكون أو جزئية كالجزيرة أو نوعاً من النبات " .

فالأساطير قصصاً مقدسة، تروي مختلف الأحداث التي وقعت في زمن البدء... وتدور أحداث أساطير الخصب حول النماء والخصوبة التي هي أساس استمرار الحياة.

إنّ إلقاء نظرة على أساطير مختلف الثقافات، تجلي بين ثناياها ظاهرة الخصب والنماء الذي يظهر في الطبيعة، ففي الديانة المصرية القديمة نجد " إزيس الآلهة المصرية العريقة كانت ربّة الخصب وهي تقابل سيريس الرومانيّة، وديمتر الإغريقية هن ربّات الخصوبة إذ من المعروف أنّ إزيس كانت تُحظى بمكانة مرموقة لدى المؤمنين بها سواء كانوا من المصريين أو من غيرهم، وذلك لما كانت تحمله أسطورتها من معاني الحب والحنان والوفاء والبعث والأمل في حياة آتية بعد الموت، وقد لقيت التقدير من البطالمة إذ جعلوها عماداً ثالوثهم الذي عبده في مصر، مقرنين معها سرايس بدلا من أوزيريس وهاربو قراطيس بدلا من حورس<sup>2</sup>، حيث أنّ إزيس هو الباب الذي انتقل منه القانتون من عبادة إزيس إلى عبادة أم أخرى هي أم المسيح ويمكن الاستدلال على ذلك الهدوء، كما قيل من تماثيل السيّدة مريم يعني أن إزيس المصريّة المخصبة تماثل مريم عند المسيحيين.

<sup>1</sup> شهيرة بوخنوف، أساطير الخصب في بعض الثقافات (مخبر التمثيلات الفكرية والثقافية - إبداع تواصل - نقد)، مجلة أكاديمية تعني بالدراسات الأكاديمية في الأدب واللغة والثقافة والفكر ، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو ، العدد 03 أفريل 2017، ص 83.

<sup>2</sup> شهيرة بوخنوف، أساطير الخصب في بعض الثقافات، المرجع السابق ، ص 85.

ويُروى في أسطورة سيريس بروسيرينا، وهي الأسطورة نفسها ديمترا وبيرسوفوني الاغريقية أنَّه بينما كانت ابنة سيريس بروسيرينا الجميلة المرححة تقطف أزهار البنفسج والسوسن مع رفيقاتها حتى وقع عليها بصر إله العالم السفلي بلوتو، فيقع في غرامها إذ رأى بأنَّ جمالها الوضاء هو القادر على بعث الحياة في مملكته السفلية الخامدة، فاختطفها عنوة رغم صراخها وتوسلاتها .

تسلك الأحزان والهموم إلى أمها سيريس التي كانت أول من حرث الأرض، فأخذت تبحث عنها في جميع أرجاء الأرض، وعندما أضناها التعب أخذت تلعن الأرض فقضت على الفلاحين والثيران بالهلاك والطاعون، وأمرت الحقول بإفساد ما عُرس فيها من بذور فلم يعد ينمو فيها نبات ولا زرع ، فأصبحت الأرض قاحلة جرداء بعدما كانت مخصبة خضراء ... .

ومن أعماق البركة برز وجه أريثوزا فأخبرت سيريس بحقيقة ابنتها، وما إن سمعت كلامها حتى انطلقت إلى آله جوبيتر متوسلة إياه ليعيد إليها حبيبها بروسيرينا من العالم السفلي فأجابها أنه من السهل إستعادتها إذا لم تتذوق طعامه، غير أن ابنتها كانت قد تذوقت سبع حبات من رمانة العالم السفلي عندما كانت تتجول في حدائقه، فحال بينها وبين العودة إلى عالم الأرض، لكن سرعان ما تدخل الإله جوبيتر بين أخيه وشقيقته الحزينة فقسم العام إلى قسمين متساويين حتى تستطيع بروسيرينا أن تقيم مع أمها "سيريس" ذلك العدد من الشهور التي تقضيها مع زوجها بلوتو فتبدل وجه أمها وأشرق فرحاً بعودتها<sup>1</sup>.

وبعودة ابنتها عاد الاخضرار إلى الأرض إلى سابق عهده إنها أسطورة ترمز إلى النماء الذي يموت ويبعث من جديد في فصل الربيع فغياب " بروسيرينا عن سطح الأرض يحلّ الظلام والجفاف على أديم الأرض، وبعودتها يعود النور والاخضرار، فهي تنزل كلّ شتاء إلى زوجها بلوتو في العالم السفلي لكنّها تعود من هناك، مع مطلع كلّ ربيع، ولذلك نجد أن هناك مهرجاناً يدعى " عبد الزهرة الذهبية " <sup>2</sup> كان يقام تمجيداً لبرسيفوني في سارديس، وربما كان ذلك في أحد أشهر الربيع، ومن المحتمل جداً أنَّهم كانوا يمثلون بعث البطل، وبعث الآلهة معاً " فمهرجان عيد الزهرة الذهبية إذن يقام في فصل الربيع فرحاً بعودة وانبعث آلهة الخصب للحياة من جديد إلى غير ذلك.

<sup>1</sup> شهيرة بوخنوف، أساطير الخصب في بعض الثقافات، المرجع السابق ، ص 86.

<sup>2</sup> سير جيمس فريز: أدونيس أو تموز، دراسة في الأساطير والأديان الشرقية القديمة ، تر: جيرا إبراهيم ، ط3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، لبنان، 1982، ص ص 135-136.

تحكي هذه الأسطورة أنَّ الإله بلوتو أختطف بروسيرينا إلى العالم السفلي بعدما أعجب بجمالها فحزنت أمها وأصيبت الأرض بالجفاف والقحط، فطلبت الأم من جوبيتر أن يعيدها لكن بروسيرينا كانت قد أكلت من رمانات العالم السفلي، فقرر أنَّ تقضي جزءاً من السنة مع زوجها وجزءاً مع أمها .

والأسطورة نفسها تقريباً نجدها عند الكنعانيين " فإله الخصب الكنعاني بعل ... يُصارع إله الموت والعالم السفلي موتو، تساعد في هذا الصراع أخته ومعشوقته العذراء المقاتلة عنات فموتو يريد أن يسلب بعل السلطة على العالم والآلهة، وقد نجح في سعيه هذا وهلك بعل فشرعت عنات الحزينة تبحث عن جسده إلى أن عثرت عليه ودفنته ثم قتلت موتو وقطعت جسده إلى أجزاء وأحرقتها، وطحنتها كما تطحن الحبوب ونثرتها في أرجاء الحقل، فبعث بعل واستردَّ سلطته لكن موتو ظهر من جديد، وأخذ يصارع بعلًا، وهكذا يتجدد الصراع بينهما فيؤدي هلاك بعل إلى حصول الجفاف وذبول الطبيعة، وتحمل قيامته من الموت الازدهار لقوى الطبيعة كلها " <sup>1</sup> فموت بعل هو ذبول للطبيعة أي حلول لفصل الشتاء وانبعاثه للحياة هو حلول لفصل الربيع أين تجدد كل قوى الطبيعة .

ونجد عند البابليين الآلهة عشتار التي هبطت إلى العالم السفلي لإنقاذ زوجها تموز " إذ يتضح أثر عشتار على الطبيعة في قصة هبوطها إلى العالم الأسفل فحين نغيب مع الموتى تصاب الحياة بالقحط فتتضب الخضرة، وتذهب الخصوبة، ويعجز الذكور عن ممارسة دورهم الجنسي مما يهدد الحياة على الأرض بالفناء " <sup>2</sup> .

فنزول الإلهة عشتار إلى العالم السفلي المظلم هو غياب لكل مظاهر الخصوبة وصعودها إلى العالم العلوي هو عودة الخصوبة والخضرة " إنَّ موت النباتات في الخريف وحياتها في الربيع هو غياب "عشتار" روح الخصوبة الكونية وعودتها حيّة قويّة متجددة " <sup>3</sup> .

تروي لنا الأسطورة البابلية أنَّ الإلهة عشتار نزلت إلى العالم السفلي لتنقذ زوجها وفي أثناء غيابها يعم الجفاف وتحتفي الخصوبة وعودتها يعيد الحياة والنماء فغياها يمثل الخريف وعودتها تمثل الربيع .

<sup>1</sup> شهيرة بوخنوف، أساطير الخصب في بعض الثقافات، المرجع السابق ، ص 87.

<sup>2</sup> محمود مفلح البكر: الروح الأخضر، احتفالات الخصوب في العادة والمعتقد ، ط 1، دار الحضارة الجديدة، بيروت، لبنان، 1992، ص 197.

<sup>3</sup> فراس السواح : لغز عشتار، الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة ، ط 7، دار علاء الدين ، دمشق، 2000، ص 107.

والاحتجاب الشهري للأم القمرية هو الآن احتجاب سنوي لأم الخصوبة وروح الإنبات في الخريف تهبط عشتار إلى العالم الأسفل لترقد هناك طيلة الشتاء، ومع الربيع تنهض من مرقدتها ملونة وجه البسيطة بكل أخضر بهيج ، وبذلك تكون الإلهة عشتار ربّة الخصب والنماء في الطبيعة.<sup>1</sup>

تهبط الربّة عشتار إلى العالم السفلي طوال الشتاء وتعود لها الخضر في فصل الربيع وارتبط في الأساطير والطقوس ارتباطاً وثيقاً بكيبيلاً، الإله أئيس إله الخصب القديم الذي توافق في آسيا الصغرى مع شجرة الصنوبر الدائمة الخضرة.

وفي الربيع كان الفريجيون وسكان آسيا الصغرى الآخرون يحتفلون بعيد استيقاظ الطبيعة، ويكرمون أم الآلهة كيبيلاً ومعشوقها فيقدمون للآلهة قربانين كثيرة، ويدفنون الصنوبر رمزياً، ويغسلون صورة الإلهة بمياه النهر " فالإله أئيس هو إله الخصب والتجدد الدوري في الطبيعة، لهذا كانت آسيا الصغرى تحتفل باستيقاظ الطبيعة وتكرم الإلهة كيبيلاً مع معشوقها أئيس في مطلع كل ربيع.<sup>2</sup>

كان الفريجيون يحتفلون بعودة الربيع وهو موسم الحياة والطبيعة فكانت تزيين الأشجار وتقدم القرابين عند قدوم الربيع .

ونجد الربة إنانا الإلهة الأم عند السومريين وملكة السماء قد أصبحت فيما بعد مرادفة للربة عشتار، وعُرفت كذلك باسم نيني ويبدو أنّ هذا الاسم كان يطلق على ربّات ما قبل الطوفان ومعناه السيّدة أو السيّدة العظيمة، واقترن اسمها فيما بعد باسم فينوس " فأدونيس لقي مصرعه على يد خنزير بري، وهو يمارس الصيد في الجبال فنبتت من دمه المسفوح شقائق النعمان وحزنت أفروديت لمصرعه حزناً شديداً فقررت الآلهة أن يمضي معها ستة أشهر من كلّ عام أمّا الأشهر الستة الأخرى فيقضيه في العالم السفلي ... فتطلق حبيبته الإلهة باحثة عنه وبينما هي غائبة عن الأرض تتعرض هذه لأشعة الشمس الحارقة، ولاتنشأ أي عاطفة حب بين ذكر وأنثى.<sup>3</sup>

أمّا عند العرب فذكر مرسى الصباغ أسطورة "تانا" صديقة الغابة التي خطفها أحد الملوك، فحظنت الغابة ووحوشها لفراقها، وحتى الحياة وماتت المزروعات ولم تعد لها الحياة إلاّ بعودة تانا، وهذا يعني أنّها رمز للخصوبة والأمر نفسه بالنسبة لأسطورة الفتاة الإفريقية التي أسموها بآبنة الطبيعة البكر التي احتضنتها الطبيعة منذ طفولتها، ووهبتها أجمل ما لديها، فإذا ابتسمت صارت الطبيعة مبتهجة، وإذا

<sup>1</sup> فراس السواح : لغز عشتار، الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة ، المرجع السابق ص 107

<sup>2</sup> شهيرة بوخوف، الحفيظ بو الصوف ، أساطير الخصب في بعض الثقافات، المرجع السابق، ص 88.

<sup>3</sup> المرجع نفسه .

حزنت أعلنت الطبيعة عن غضبها وحزنها بكلّ الصّور ولكن ينزل (جوبيتر) ربّ الأرباب في زيارة خاطفة للأرض فيرى آزار ويقع في هواها فيخطفها ويصعد بها إلى الجبل الأولي فتمتلى الطبيعة حزناً على ابنتها، وأخذت تذرف الدموع وتتضرع لربّ الأرباب كي يعيد آزار لكن لم يستجيب (جوبيتر) إلّا لأنات وأحزان آزار، وعندما عادت للحياة كان ذلك في الربيع ففرحت الطبيعة وأقامت الأفراح والاحتفالات.<sup>1</sup>

تتحدث هذه الفقرة عن فكرة الإله الذي يموت ويعود للحياة فإنانا ربّة السماء عند السومريين وهو رمزاً للخصوبة وارتبطت بالإله ثم ظهرت أسطورة أدونيس الذي قتل أثناء الصيد فنبتت من دمه شقائق النعمان فغياب الشّخصيّة المقدّسة يعني هذا حزن الطبيعة وموت الزرع والعكس كذلك .

ونجد في الجزائر أسطورة عشبة خضار، وملخصها أن امرأة رزقت بفتاة آية في الجمال يزيد جمالها كلّما كبرت ... حسدتها النساء الموجودات في القصر على جمالها الخارق، ونتيجة غيرهن الشديدة أحضرن عجزاً منافقة يطلقون عليها اسم "ستوت" وهو اسم يطلق على المنافقين الأشرار وطلبن منها أن تأخذ عُشبة خضار إلى الغيلان فأخذتها إلى الغولة التي رحلت بها إلى بلاد الغيلان ... ومُنذ أن غادرت عُشبة خضار بلدها جف الماء من كلّ منابعه المتعددة فأصبحت الأرض قاحلة جرداء.

كبرت عشبة خضار بعد فترة زمنيّة فأرادت الغولة أن تعود إلى بيتها الأوّل اعتقاداً منها بأن قبيلة عُشبة خضار لم يعد لها وجود وبمجرد أن وصلت عادت المياه إلى مجاريها واخضرت الأرض، فعرف والدها السلطان وزوجته بأنّ ابنتها عشبة خضار قد عادت إلى الوطن، فأرسل الخدم للبحث عنها وبعد طول البحث وصلوا إلى كهف الغولة. نادوا عليها فخرجت إليهم الغولة بأبشع الصورة وخرجت معها "عشبة خضار" التي أبهرتهم بجمالها، وبعد تأكدهم بأنّها ابنة السلطان من خلال خصلة شعر ناصعة البياض نزعوها من بين يدي الغولة، وأرجعوها إلى قصر والديها وبعودتها عمّ الخير والخصب البلد ...<sup>2</sup> فغياب عشبة خضار عن وطنها هو غياب لكلّ اخضرار وعودتها هو عودة للاخضرار والخصوبة.

ولعل سائلاً يقول : لماذا تموت آلهة الخصب المعروفة بالقوة وتبعث مرة أخرى يُجيبنا فراس السواح فيقول إنّ التجديد الحقيقي للقدرة الإلهية لا يتم إلّا بالموت الفعلي الحقيقي الكامل الذي يليه البعث حيث يزيل الموت ما يلي، ويُعطي البعث كلّ جديد ... فألهة الخصب هي أكثر الألهة حاجة إلى تجديد قواها لأنّ أي بادرة ضعف تنتابها سيكون لها تأثير مباشر على توازن الطبيعة وحياة الكائنات.

<sup>1</sup> المرجع نفسه شهيرة بوخنوف، الحفيظ بو الصوف ، أساطير الخصب في بعض الثقافات، المرجع السابق ، ص 89

<sup>2</sup> ينظر: عبد الرحمن بوزيدة وجمال معتوك وآخرون : قاموس الأساطير الجزائرية ، دط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، منشورات

CRASC وحدة الرغبة ، الجزائر، 2005، ص ص 222-223.

لذا كان على الإله أن يقدم نفسه للموت وهو في عز الشباب فيحدد نفسه ويبعث ثانية قبل أن تنال منه الستوت .

بهذا يتقرر مصير الآلهة، ستبقى أسيرة بين العالم الأرضي والعالم السفلي تدور بينهما ذلك أنّ الموت هو الذي يجدها لتبعث بكامل قواها في النهاية فيحضر كل ما في أديم الأرض أي أن موت الآلهة في مختلف الأساطير يمنحها القوة لتجدد نفسها.

انطلاقاً مما سبق يمكن القول أنّ كلّ الميثولوجيات توحى إلى النماء والخصب الذي يموت في فصل الشتاء ويبعث في فصل الربيع فموت الآلهة عشتار - تموز - إنانا ... هو موت لكل مظاهر الخصوبة في الطبيعة، وبعثها هو عودة للاخضرار والخصوبة من جديد غنها آلهة خصب تجعل الأرض مخصبة معطاء لأجل استمرار الحياة.<sup>1</sup>

توضح الأساطير الموت والبعث عند الشعوب القديمة كانت ترمز دورة الحياة فإختفاء الإله لا يعني النهاية بل هو مرحلة ضرورية ليعود أقوى، فمع الشتاء تموت كلّ مظاهر الخصب وتجف الأرض ثم تعود الحياة فصل الربيع وتصبح قادرة على التجدد الدائم .

### طقوس الخصوبة المرتبطة بالأرض :

لم يكن الانشغال بموضوع الماء والأرض جديداً في مسار التاريخ الإنساني إذ أننا نجدها تشغل حيزاً من البحث والتفكير في أزمنة موعلة في القدم حيث كان لها نصيب في أساطير ما قبل التاريخ إذ نجد لها حضوراً خصباً في مجتمعاتنا ويحتل كلّ عنصر من هذه العناصر الماء والأرض قيمة دلالية وبعداً رمزياً في الميخيل الشعبي ... وتظهر هذه العناصر مجتمعة في الميخيل الشعبي<sup>2</sup> ... ولقد حاولنا تسليط الضوء على بعض الثقافات الشعبية بالملاحظة والتحليل كطقوس الاستمطار باعتبارها من أهم العناصر الثقافية تجسيدا لعلاقة الماء والأرض في فكرة الخصوبة، وكانت طقوس الاستمطار معروفة في إفريقيا بمختلف أحنائها حتى وإن اختلفت تفاصيل أدائها فإن هدفها واحد، وهي طلب نزول المطر وممارسات تعبدية تقع بين الخوف والرجاء حين تكون الأرض والمحاصيل مهددة بالتلف وشح المياه<sup>3</sup> من خلال هته الطقوس الاحتفالية نود البحث في دلالات الخصوبة وعلاقة الماء والأرض فيها ... ونجد طقوس مرتبطة بالأرض.

<sup>1</sup> ينظر: عبد الرحمن بوزيدة وجمال معتوك وآخرون : قاموس الأساطير الجزائرية المرجع السابق ، ص 91.

<sup>2</sup> رزائية فاطمة ، بن معمر بوخضرة : الماء والأرض والمرأة ودلالات الخصوبة من خلال طقوس الاستمطار، مجلة المواقف ، للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ ، مجلد16، عدد 01، مارس 2020، ص 217

<sup>3</sup> المرجع نفسه .

**طقس القايمية :** القايمية طقس أنثروبولوجي، فعندما يكون الجفاف الذي يهدد المزروعات، تجتمع النسوة في بيت العجوز الأكبر سنًا فالمرأة المسنة في المخيال الشعبي تجسد البركة والطهارة لخلوها من دم الحيض فيبدأ هذا الطقس بعقد النية، حيث تنوي كل الحاضرات أداء طقس عروس القايمية أو ما يسمى بوغنجة أو الغنجة أو الغنجاية ويشترط حضور الأطفال في هذا الطقس فهم يحملون دلالة النية الصافية فتتزع العجوز أغطية رأسها زاهية الألوان وتقوم بربطها بملعقة كبيرة أو كما يسمى محليًا (مغرف الزقو) حيث ترمز أغطية رأس العجوز (المحارم) إلى اكتساب الأرض بمختلف الأعشاب والزهور، أمّا مغرف الزقو فهي ترمز إلى جوع أهل المنطقة وتحمل دلالة المياه الغزيرة ... ويربط بين المغرفة وعروس المطر التي يطوفون بها لنزول المطر من طرف إلى الخصب والمطر، فعند الانتهاء من صنع عروس المطر ترفعها صبية عذراء بيدها اليمنى تلوح بها إلى السماء، يتبعها صبية صغار ويسير الجميع في موكب بهيج وهم يرددون بعض الأهازيج المتناغمة والموزونة في شكل أسلوب تضرعي إذ يردد الصبية <sup>1</sup>.

القايمية القايمية ... القايمية لبست لخصر واللون الزاهي .

القايمية القايمية ... القايمية لبست جلاله والعام كاد الرجالة

مطارة قطارة تملئ عروق العرارة ... .

وبمجرد الانتهاء من آخر بيت يبدأ المطر بالهطول ليعودوا إلى البيت الذي انطلقوا منه فتقوم منه النسوة هناك بتحضير الطعام المتمثل في طبق الكسكس، مما جمعه الأطفال ويتم تحريكه في القدر بواسطة (مغرف الزقو) التي استعملت في الطقس يجتمع الأطفال حوله سعداء يأكلون من الطبق كما يأكلون منه اليتامى والمارة.

**طقس وضع الفليو في الماء :** عند احتباس الحرارة ، وعدم تساقط الأمطار تذهب صبية أو صبي خجول بإحضار نبات الفليو وإرساله إلى عجوز كبيرة لتضع النبتة مع الماء لتبيت مع دعاء العجوز بأني يمطر الله غيثًا نافعًا فحضور المرأة يحمل جملة من الرموز الدالة على الخصوبة .

أمّا الطفل والعجوز فهما رمزًا للبركة والنية، نجد أنّ هذه الممارسات التي تحيط بالماء والمرتبطة بجملة من الطقوس الدالة على الأرض والزراعة والخصوبة.

**طقس تحزام الكلبة :** يتم هذا الطقس كرد فعل للرياح الحارة أو ما يسمى برياح الشهيلي محليًا وهي رياح قويّة جافة وحارة حيث يقوم أحد أفراد القرية بربط الكلبة من وسطها بالشريط وهو عبارة عن نبات الديس يقومون بفتله حتى يصبح ميثًا طنًا منهم أن ستتوقف وينزل الغيث<sup>2</sup> فالكلبة لها رمزية

<sup>1</sup> رزايقية فاطمة ، بن معمر بوخضرة : الماء والأرض والمرأة ودلالات الخصوبة من خلال طقوس الاستمطار، المرجع السابق، ص 219.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 222.

مشؤومة، وهذا الحيوان غير طاهر، فهذه الرياح إذا حلت بالمنطقة توارد إلى خواطر أهلها أنها رياح غضب من الله جراء أفعال غير مستقيمة .

### رمزية الماء والأرض ودلالات الخصوبة في طقوس الاستمطار:

لقد تعددت طقوس الاستمطار، واختلفت تفاصيل ممارستها وإحيائها، إلا أن الجامع بينها هو الهدف من وراء أدائها وهو نزول المطر لإحياء الأرض بعد جفافها ... فتجمع رمزية الماء والأرض في المنطقة بين ما هو عربي قبلي، وما هو ديني تعبدى فالسماء عندما تمطر تقوم بإخصاب الأرض وإحيائها عبر التجدد وولادة الزرع، فطقس القائمة الزراعي الأصل المرتبط بالأرض التي يتم إخصابها، تقوم بولادة الزرع والنبات والأشجار الدالة على الحياة ... فالأرض مثل المرأة تخصب بماء المطر لتنتج ثمرا ... .

يعتقد سكان بعض المناطق إن لم يقيموا الزردة قد يؤدي إلى تأخر نزول المطر وزوال البركة .  
فضاء الأضرحة يُعتبر فضاء للتبرك، والانتقال من الزمن الحاضر إلى الزمن الماضي لنيل تأثيرات كرامات الأولياء.

" فرموز البركة تبقى مهيمنة على أغلب الممارسات والاحتفالات الزراعية لكونها مرتبطة بنظام من التمثيلات الرامزة على قوة حضور الهياكل والخصائص الرمزية الدالة على مواضيع المقدس وصورة وتجلياته".

فيقام حفلا كسكسيا على وقع تهليلات الرحابة ومدائحهم، ودعوات الحاضرين في أن يغيثهم الله غيثا نافعا لإخصاب الأرض ...<sup>1</sup>

فالضريح يقصده الفلاح طلبا للمطر واستنجادا لصلاح الأرض والمزروعات، وإذا ما تحقق ذلك يلجأ إليه حامداً شاكرًا على الخير الوفير، فالمشترك بين كل هته الممارسات والزيارات واحد هو السعي من أجل الخصوبة والإنتاج.

### الأرض والهوية والانتماء:

تتعرض الهوية لحقبة من الاهتزازات، وذلك عند صراع ثقافتين مختلفتين والحال نفسه من خلال الصدام بين الثقافتين الغربية والإفريقية. إذ مرّت شعوب القارة السمراء بمراحل قاسية بداية من المرحلة الاسترقاق والتبشير الكنيسي لتجد نفسها تبحث عن هويتها بين قيم إفريقية وقيم غربية حديثة، ومن خلال هذا ظهرت خطابات فكرية تنفي ثبات الهوية .

<sup>1</sup> رزايقية فاطمة ، بن معمور بوخضرة : الماء والأرض والمرأة ودلالات الخصوبة من خلال طقوس الاستمطار، المرجع السابق ، ص 228.

### تعريف الهوية الثقافية :

ترتبط الهوية الثقافية عند جورج لارين بمسألة الهوية الشخصية، ومفهوم الهوية الثقافية لدى بعض الدراسيين هي مجموعة من السمات التي تتصف بها جماعة من الناس، والتي تولد الإحساس لدى الأفراد بالانتماء لشعب معين. والارتباط بوطن معين والتعبير عن مشاعر الاعتزاز والفخر بالشعب الذي ينتمي إليه هؤلاء الأفراد ... وحين نتكلم عن الهوية الإفريقية يتطلب منا الإشارة إلى أنها تعاني من تداخل في مستوياتها المختلفة المادية والروحية، وهي عبارة عن ثنائية ناتجة عن الاحتكاك بالثقافة الغربية التي فرضها المستعمر على الشعوب الإفريقية، وإنَّ الإنسان الإفريقي احتفظ بأهم مقوماته ومكوناته وإنَّ المستعمر لم يجد القارة الإفريقية قاعاً صفصفاً ... بل إنَّ القارة الإفريقية قد عرفت حضارات وثقافات تاريخية عميقة الوجود وهو ما يؤكده الكاتب النيجيري شينو أشيبي *Chinua Achebe* في إحدى تصريحاته سنة 1994 أنَّ الشعوب الإفريقية لم تسمع بالثقافة لأوّل مرّة عن طريق الأوروبيين، وأنَّ مجتمعاتهم تملك غالباً فلسفة عميقة جدّاً لها قيمتها وجمالها .

### مكونات الهوية الثقافية الإفريقية :

إنَّ فهم أبعاد الهوية الثقافية الإفريقية يقتضي منا بالضرورة التعرض المرجعيات التي تشكلها وظروف تكوينها وسنركز على اللغة والدين في تكوين ثقافة الشعوب الإفريقية ودون أن نلغي التاريخ الذي يمثل العامل الأساسي الذي تلتف حوله الشعوب لإثبات هويتها الأصلية .

**1. الأرض كعنصره مكون للهوية الجماعية :** تمثل الأرض الواحدة التي يقطنها البشر عنصراً مهماً في تشكيل هويتهم الجماعية، فوجود الأفراد على أرض ذات مساحة وحدود جغرافية تسمح للجماعات البشرية بالتجمع والاجتماع عليها، وتمثل كذلك عاملاً مهماً مؤثراً في بلورة هوية مشتركة بينهم، وقياساً على رأي جوموكينياتا في كتابة " في مواجهة جبل كينيا فإذا كانت الأم تحمل جنينها في بطنها تسعة أشهر، تم ترضعه عامين، فإنَّ الأرض تطعم الإنسان طول حياته وبها يُدفن، وفي أعماقها توجد أجساد الأجداد وأرواح الأقدمين لذا نجد أنَّ عنصر الأرض لا يمكن أن يسهم في تشكيل الهوية بمفرده بل تدعمه مكونات أخرى لها علاقة بوحدة وروح الجماعة، فالأرض مجرد عامل مُساعد ومهيأ لتشكيل هوية الجماعة، فثمة العديد من المجتمعات تشترك في حدود جغرافية واحدة، لكن لكل منها هوية خاصة<sup>1</sup> .

<sup>1</sup> رزايقية فاطمة ، بن معمر بوخضرة : الماء والأرض والمرأة ودلالات الخصوبة من خلال طقوس الاستمطار، المرجع السابق ، ص 228

كما تساهم الأديان والمعتقدات في إثبات الهوية الأصيلة فإن الديانة المسيحية انتقلت إلى إفريقيا نتيجة لنشاطات الكنائس الأوروبية والأمريكية، والإسلام يمثل نسبة قليلة رغم وصوله إليها قبل المسيحية بواسطة المتصوفة والتجار و... فمعظم القبائل الوثنية في إفريقيا تؤمن بإله واحد يسيطر على هذا الكون ويتخذون الأوثان وسطاء لهذا الإله المسيطر فنجد قبائل الباميرا في كينيا تسمى هذا الإله (فارو) وتسميه قبائل الأشانتي في غانا (نانا)، كما يسميه شعب الكيكيو في كينيا (مولونجو) ويسميه الدينكا في السودان (نيال) كما يسميه (الزولو) في جنوب إفريقيا.<sup>1</sup>

فلا يمكن تصوّر هوية ثقافية إفريقية أصلية من دون هذه الطقوس فهي إحدى سمات شعوب الصحراء.

## أولاً : تمثلات الأرض في أساطير الخلق والخصوبة الإفريقية

### 1. الأرض في أسطورة الخلق الإفريقية

الأسطورة التأسيسية في نصّ قصّة الخلق في نظام إيفا:

تروي منظومة إيفا العرّافية لليوروبا قصّة خلق العالم فإنّ بدأ الخلق من فراغ أولي يسمى أبو *iwu* حيث كان الإله أولودوماري وحيداً في هذا الفراغ ثم أرسل الإله ثلاثة من الأوريشا الكبار أو باتالا وأدو دودو وأورونغميا لتنظيم الفوضى الأولية.

تصف الأسطورة كيف حمل أبوتالا كيساً من التراب الأصلي وريشة دجاج ثم نزل من السماء على سلسلة عنكبوتية ليخلق الأرض. بينما تولى أودودو تنظيم اليابسة والمياه وأورونغميا وضع قوانين الكون للطبيعة وتزعم الرواية أن البشر خُلِقوا من طين مختلّك باللعب الإلهي ثم نفخ فيه الروح عبر قرون حيوان الكاريبو.<sup>2</sup>

تحمل هذه الأسطورة رموزاً تعكس الرؤية الكونية لهذا الشعب، فاستخدام التراب يرمز إلى المادّة الأصلية بينما الريشة هي عنصر الروح والنفخ الإلهي.

وتكشف الأسطورة عن تصور هرمي للخلق حيث يبدأ الإله الأعلى وينزل عبر مستويات من الكائنات الوسيطة قبل الوصول إلى الإنسان، وتحتل الكهنة موقعاً بين الناس والإلهية، وتتعارض أسطورة الخلق اليوروبية مع الحقائق العلمية الثابتة من عدّة جوانب جوهرية.

<sup>1</sup> جوموكينياتا، في مواجهة جبل كينيا (بحي عبد العظيم)، مصر، د ت، ص 26.

<sup>2</sup> أسطورة الخلق، ونشأة الكون في منظومة إيفا اليوروبية، الاربعاء 17 شعبان، 1448هـ، 2004م، [awkafole.gov.eg](http://awkafole.gov.eg)

فهذه الأسطورة تقدّم تفسيراً لنشأة الكون، وتتناقض مع فكرة خلق الأرض من تراب نزل من السماء مع النظريات الجيولوجية الحديثة التي تشرح تكون القشرة الأرضية التي استمرت مليارات السنين.

فهذه الأسطورة تقدّم نموذجاً في تفسير نشأة الكون الذي يحمل رموزاً فلسفية عميقة.

من الناحية العلمية تتعارض مع نظريات نشأة الكون والأرض بأدلة تجريبية. ومن الناحية العقديّة تتناقض مع التصرّو الإسلامي للخلق الذي يجمع بين إثبات القدرة الإلهية مع مبادئ العقل أسطورة الخلق ونشأة الكون في منظومة إيفا اليوروبية أسطورة الخلق في منظومة إيفا العراقية لليوروبا إنّ الكون.

### العلاقة بين السماء والأرض:

#### أقسام المكان الأسطوري :

لقد أدّى المكان الأسطوري دوراً ثانوياً في مختلف الأساطير المدونة باعتبار الأسطورة لا تستند إلى المكان إلّا بمقدار العلاقة التي يقيمها هذا الأخير مع التخيل أو مع اللاواقع، وهو بالرغم من هامشيته يحمل خصوصيات أهله لأنّ يكون مختلفاً عن باقي الأنواع الأخرى من الممكنة في النصوص الأدبيّة والسردية المتعدّدة: " فالمكان الأصلي في المنظور الأسطوري للتكوين القدسي مكان مقدس، وكن يفقد قدسيته الأصلية خلال مسارات طويلة من التدنس والحلال، فالمقدس أسطوريا ليس مقدساً بذاته، إنما يكسب صفة القداسة من حدث أو من قدر معين<sup>1</sup>، ومن هنا نجد أن المكان الأسطوري يتخذ طابعين: الطابع الأزلي، والطابع الميثولوجي.

**الطابع الأزلي :** بمعنى أنّه المكان الأول الذي ظهر إلى الوجود ثمّ تولدت عنه بقية الأماكن الأخرى، وبما أنّه أزلي فهذا يعني أنّه خيالي، ولا وجود له في الواقع المحسوس المعيش، فهو يتحول إلى مكان وهمي خيالي بمجرد ما يستخدم من النصوص الأسطورية، ذلك أنّه نتاجاً فكرياً بالدرجة الأولى وليس نتاجاً مادياً، في حين الواقع معطى حقيقي وموضوعي، وتعدّ الأسطورة عملية خلق لواقع تخيلي، فالمكان فيها ليس مجالاً هندسياً وقياسات خاضعة للحسابات مثل الأماكن الجغرافية، بل يتشكل وفق التجربة الفنيّة انطلاقاً واستجابة لما عاشته الجماعة الشّعبيّة مائلاً بتفاضله ومعالمه أو على مستوى التخيل بملامحه وضلاله<sup>2</sup> وعليه فإنّ المتخيل هو نوع من الممارسة لهذا الواقع، وقد تكون هذه الممارسة في شكل إعادة إنتاج، أو ترتيب علاقات جديدة.

<sup>1</sup> خليل أحمد خليل، مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1986، ص 68.

<sup>2</sup> سعيد يقطين، قال الراوي: البنات الحكائية في السيرة الشعبية، ص 246.

إنَّ أي عمل أدبي نثريًا أكان أم شعريًا هو نتاج خيال المبدع، والمكان أحد العناصر الضرورية في بناءه سواء كان هذا المكان منطلقًا من الواقع المعيش أم آيتا عبر المخيلة الذهنية.

أمَّا الطابع الآخر فهو الطابع الميثولوجي : إذ أنَّ أغلب الشعوب القديمة وبخاصة الجماعة الشَّعبية التي سكنت منطقة ما بين النهرين كانت تؤمن بوجود ثلاثة عوالم (أمكنة) هي السماء والأرض والعالم السفلي.<sup>1</sup>

تساهم ثقافة الجماعة الشَّعبية في رسم معالم المكان الأسطوري وتجعله مختلفًا عن المكان المحسوس، بحيث تضفي عليه معاني خاصّة فلكلّ مكان فيها قيمة يستمدّها من صلته بالمقدس أو المندس، بل وله دلالة خاصّة وحياة أسطورية، وهكذا يصبح المكان "مقسّم إلى مناطق ذات قيمة رمزية من قبيل القداسة والسعد والنحس والشفاء والنعيم، وما إليها من دلالات ذات صلة شبكة من العلامات والترابطات الرمزية بين الكائنات على اختلافها خاصة وأنّ هذا المكان الأسطوري .

مضمون بلا شكل ومدلول يبحث عن داله، وهكذا تشكلت بعض الأساطير بالمكان وامتزجت به ليصبح ركنًا أساسيا في بنائها مضيئة عليه هالة من القداسة ومن ثم أسطرته.<sup>2</sup>

ويمكن تقسيم المكان الأسطوري ببعده الجغرافي في مجموعة ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور إلى ثنائية المغلق والمفتوح التي تساهم إسهاما كبيرا في تصعيد حركية المكان في النصّ الأسطوري.

**1. المكان المفتوح :** مكان واسع رحب، لا تحده حدود جغرافية أو نفسية تشعر معه الشخصية بالراحة والألفة والأنس، فهو كلّ حيز كبير أو صغير قائم أو متحرك. ثابت أو متغيّر، يحتوي الحدث القصصي والشخصية والفكرة، وينفتح على الآخر مباشرة أو بالواسطة ويلاقيه بالصلة أو التفاعل أو التأثير ... .

كما يعرفه عبد الحميد بواريو أيضا " ونقصد هنا بالحيز المكاني : احتضانه لأنواع مختلفة من البشر وأشكال متنوعة من الأحداث وتتصل هذه الأماكن المفتوحة بفضاءات محدودة وغير محدودة كالبحر والغابة والصحراء والشوارع والجسور وهي توحى بالحرية والانطلاق والانسجام مع الذات ويتم التركيز على هذه الأماكن".

<sup>1</sup> شوقي زقادة : (دلالات المكان في أساطير بلاد ما بين النهرين) ، مجلة أنثروبولوجيا ، مجلد 05، العدد 10، قالمة، 2019، ص 262.

<sup>2</sup> المرجع نفسه .

أ/ الأمكنة المكشوفة (السماء والأرض)

ب/ المدن

ج/ المعابد

أ. الأمكنة المكشوفة (السماء والأرض) : عاش الإنسان القديم في بيئة مملوءة بالمقاصد والإشارات وطَبَّق ذلك على ما هو في الأعلى، السماء وما هو في الأسفل الأرض وعلى كامل الطبيعة التي زودها بنوايا ومنحته المساعدة.

ولقد فَرَّق الإنسان القديم منذ بداية تأمله فيما يحيط به بين ما هو فوق وما هو تحت وبين الأعلى والأسفل والسماء والأرض، وشعر بضعفه ودنوه أمام الكون اللا محدود فالآلهة هم في الأعلى قبل أن تكون السماء وقبل تكون الأرض تقول الأسطورة : " بينما في الأعلى ... لم تكن السماء قد سميت بعد ... والأرض اليابسة في الأسفل ... لم يطن أطلق عليها أي اسم ... وحدها أبسر - الأول ... والدهم وتياملت ... والدتهم جميعًا ... كانا معًا بمرجان ... مساهما " <sup>1</sup> .

حيث نزل من السماء إله ونزلت معه الملكية وأنزل فأَسَّ لعمل الأرض وحبوبًا غذاء للإنسان وللآلهة . أمَّا الأرض فهي الأم المغذية وحين تسكب السماء منّيها في حضن الأرض المتعطشة للإخصاب فهذا ما يحدث عنه اتخاذ العلوي (الروحي) مع الأرضي (المادي) وهذا الاتحاد هو أساس الحياة .

وبين السماء والأرض هناك نوع من الاتصال بينهما يتحدّد بعملية الإرسال والاستقبال فالسماء بحكم موقعها الجغرافي كانت تقوم بالإرسال والأرض، فقد كانت تقوم باستقبال كلّ ما ترسله (فوق) السماء، وكانت الآلهة الوسيط بينهما، لأنَّ العلاقة بين الأماكن لا تتم إلّا من خلال الارتباط بوسيط ثالث هو الآلهة .

ويمكن تحديد العلاقات التي تربط بين السماء والأرض وفق الأطر التالية <sup>2</sup> :

1. علاقة السماء بالأرض علاقة عمودية بمعنى كلّ ما هو موجود في السماء يمكن إنزاله إلى الأرض والعكس غير صحيح ، هذه العلاقة تبنى على انفتاح المكان الأول على الآخر، فالأشياء تختلف في شكلها حين ننظر إليها من الأعلى، لأننا نراها شموليتها ونمسك بها جميع جوانبها.

2. علاقة السماء بالسماء السفلي علاقة عمودية، فالإنسان ينزل إلى الأرض السفلي بعد موته (الدفن) أمّا الصعود من الأرض السفلي إلى الأرض فهو صعود مجازي أو رمزي فقط.

<sup>1</sup> قاسم الشواف، ديوان الأساطير ، سومر وأكاد وأشور ، دار الساقي ، سوريا ، 1997، ك 2، ص 112.

<sup>2</sup> شوفي زقادة ، دلالات المكان في أساطير بلاد ما بين النهرين ، المرجع السابق، ص 262.

فمن خلال العلاقات السابقة يستطيع الإله النزول إلى الأرض والصعود منها إلى السماء، حيث يشاء، لكن الإنسان لا يستطيع ذلك، إلا إذا قدّم البديل حسب قوانين العالم السفلي وفي حالات نادرة جدًا يستطيع الإنسان الصعود إلى السماء كما في أسطورة آدابا في سماء الآلهة.

### الموت والبعث المرتبطان بالأرض:

يعتبر الموت وجه الحياة الآخر، والطبيعة يجب أن تجدد نفسها بالموت والانبعاث إلى حياة خضرة جديدة مقتفية أول حادثة موت وانبعاث على المستوى الميثولوجي، وهي حادثة موت وقيامه الإله دوموزي.

إنّ لعبة الحب الكوثية انتهت باتحاد الإلهين وهي الكور الأول، ولكن العريس ما ارتوى بعد من كؤوس الحب يجب أن يموت، وكانت العفاريت تنطلق في أثره وهو يهرب متخفيًا عن أنظارهم لكن دون جدوى لأنهم مالبثوا أنّ انقضوا عليه وراحو يسومونه أنواع العذاب قبل أن يسوقونه إلى العالم الأسفل.<sup>1</sup>

وهذا النص بعنوان أكثر البكاء حرارة يا حدث عن موت دوموزي :

أكثر البكاء الدنيا مرارة نبذله على زوجها

من أجل إنانا أكثر البكاء مرارة، نبذله على زوجها

واحسرتاه على زوجها، واحسرتاه على فتاه

واحسرتاه على بيتها ، واحسرتاه على بلدها

على زوجها الأسير، على فتاة الحبيس

على زوجها الميت على فتاه الراقد

وبعد ذلك يعود المنشدون لإعطاء تفضيلات عما حدث أن سبعة عفاريت من العالم الأسفل قد بعثوا للقبض على دوموزي، وراحوا يبحثون عنه حتى وحدوه نائمًا في الحضيّة فدخلوها وأخذوا يخربون كل ما يقع تحت أيديهم ثم قام العفريت السابع بإيقاظ دوموزي بغلطة.<sup>2</sup>

ثم دخل العفريت السابع إلى الحظيرة

وأنهض سيد الرعاة النائم

أنهض زوج إنانا المقدسة، سيد الرعاة النائم ....

<sup>1</sup> فراس السواح : الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات الشرقية، المرجع السابق، ص 165

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 166.

ولكن دوموزي يفلح في الإفلات من أيديهم، وها هم يتشاورون في أمرهم ويضعون خطة المطاردة.  
 عفريت نظر إلى عفريت  
 العفريت الصغير خاطب العفريت الكبير  
 الفتى نجا من قبضتنا (...)   
 دوموزي الذي نجا من قبضتنا (...)

يصل دوموزي إلى ضفة نهر الفرات فيخلع ثيابه ويسبح إلى الضفة الأخرى حيث يكون في  
 انتظاره أمّه وزوجته ولكن التيار كان أقوى منه أو أن قوى العالم الأسفل قد سحّرت مياه النهر لاقتناص  
 الإله الهارب من قدره.<sup>1</sup>

عند شجرة التفاح المنتصبّة التي تنمو على الرابية  
 عند شجرة التفاح في صحراء أيموش

الماء الدافق الذي يُحطّم القوارب  
 حمل الفتى إلى العالم الأسفل  
 الماء الدافق الذي يحطّم القوارب

ثمّ يظهر البكاء بحزن على الإله الميت والمبالغة في إظهار الحزن ويظهر أن نسوة دوموزي، أمّه وزوجه  
 وأخته، قد أرسل الإله في طلبهن إلى ملجئه في الصحراء، وعندما وصلن إلى الزريبة التي يتوارى فيها  
 وجدن أن عفاريت الظلام قد خطفت دوموزي.<sup>2</sup>

أمّا عن عودة الإله الميت إلى الحياة فلدينا عنها نصّ مفصل (أيها الرب، الطفل السامي الممجّد  
 في السماء والأرض وهو مؤلف من ثلاثة عشر نشيداً متراوحة في الطول والوضوح الأناشيد الأولى عبارة  
 عن مدائح واسترضاء لدوموزي، يليها مراثية دمار مدينة أوروك التي غاب عنها الإله وفي النشيد الخامس  
 نستمتع إلى مرتبة من الأم الشكلي، تظهر فيها خوفها ألاّ يعود فيها الفتى الغائب، وما يمكن أن يحمله  
 ذلك من كوارث على الإنسان والحيوان والطبيعة، ولكن من الواضح أن تعداد المخاوف هذا ما هو إلا  
 تحريض لقوى الإله واستنهاض لهيمته.

<sup>1</sup> فراس السواح : الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، المرجع السابق ص 167.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص 168.

وفي النشيد السادس ترى الأم تذهب للسؤال عن دوموزي عند مربيته التي تعهداته بالرعاية في صغره، فتخبرها المربية بضياح الطفل وترفع الاثنتان صيحات تفجع وتبلغ عنان السماء والعالم السفلي. وفي النشيد السابع نجد الأم تتحدث عن كيفية اقتياد ابنها على العالم الأسفل ولكن نعلم أيضاً أن عودته قريبة لأنها تلبس أفضل ما عندها لاستقباله.

وفي النشيد الثامن يرتفع الإيقاع الشعري إلى ذروة عالية مفعمة بالنشوة والجدل بينما ترتفع الحناجر بنشيد مدائح للرب الذي يوشك أن يصل فتذكره بأسمائه الحسنى جميعاً.

إنَّ ما يميزه النصوص التمزجية في بلاد الرافدين هو صيغتها الدرامية، فالأسطورة هنا لا تروى بأسلوب القص الميثولوجي بل من خلال أناشيد وحواريات توضح دلالة الموت والبعث المرتبطان بالأرض فالموت وجه آخر للحياة فالطبيعة تتجدد بالموت وتعود إلى الحياة ثم هرب إلى ضفة النهر وحاول السباحة لكن مياه النهر كانت قوّة فوق في قبضة قدرة المحتوم.

### 3. الأرض في أساطير الخصوبة والأساطير الزراعية :

رأى الإنسان منذ أن تفتح عينيه على هذا الكون العجيب ظواهر طبيعية كثيرة، لم يفهم أسرارها العجيبة ، فأطلق العنان لخياله الخلاق الذي لم يحُثّه، واستطاع أن يستنبط تفسيرات وتعليلات تلائم مع إدراكه البسيط في تلك الحقبة الزمنية، إذ أرجع كلّ ما رآه إلى قوى خارقة أكبر منه من آلهة أو كائنات عليا تقوم بما لا يستطيع القيام به، أي أنه لجأ إلى توليد الأساطير التي أراحته من عناء التفكير هدأت من روعه وقلقه تجاه مختلف ظواهر الطبيعة المحيطة به.

وقد اهتم الإنسان القديم في مختلف الثقافات بآلهة الصيد والقنص تماشيًا مع ظروف حياته التي كانت تعتمد على الصيد، وبانتقاله تدريجيًا إلى طور الزراعة تغيّرت معتقداته، فأصبحت حول الخصوبة والزراعة التي صارت عماد حياته، أي أنها أصبحت مرتبطة بآلهة الخصوبة، يستر صونها ويتقربون إليها بمختلف القران لضمان خصوبة أراضيهم.<sup>1</sup>

تروي الأساطير عمّا وقع في الزمن الأول " فالأسطورة حكاية تروي عن الأزمنة التي كانت قبل بدء البدايات كلها، وعلى الأحداث التي مضى على حدوثها زمن غير معروف، وعن الآلهة والأبطال

<sup>1</sup> شهيرة بوخنوف: أساطير الخصب في بعض الثقافات، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوصوف، ميلة ، ص 83.

وظهور السماء والأرض والبشر والوحوش والنباتات والطيور، والحياة والموت<sup>1</sup>، أي أنّ الأساطير هي تلك التي تحكي ما وقع في الزمن الأوّل .

تدور شخصيات الأساطير حول الآلهة والأبطال الخارقين، تفسّر مختلف ظواهر الحياة التي كانت غامضة بالنسبة للإنسان ، ويضيف ميرسيا إلياد إلى الأسطورة صفة القداسة طونها : " قصة مقدسة تروي حدثاً وقع في الزمن البدئي، الزمن الأسطوري ، وبعبارة أخرى تروي لنا كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود بفضل كائنات عليان لا فرق إن كانت هذه الحقائق كئيّة كالكون أو جزئية كالجزيرة أو نوعاً من النبات " .

فالأساطير قصص مقدسة في نظر أصحابها، تروي مختلف الأحداث التي وقعت في زمن البدء ... وتدور أحداث أساطير الخصب حول النماء والخصوبة التي هي أساس استمرار الحياة ... .

إنّ إلقاء نظرة على أساطير مختلف الثقافات، تجلي بين ثناياها ظاهرة الخصب والنماء الذي يظهر في الطبيعة، ففي الديانة المصرية نجد " إزيس الآلهة المصرية العريقة كانت ربّة الخصب، وهي تقابل سيريس الرومانية وديميتير اليونانية، وهؤلاء الربّات الثلاث: " إزيس المصرية وسيريس الرومانية و " ديميتير " الإغريقية هن ربّات الخصوبة ، إذ هن " المعروف أن إزيس كانت تُحْطِي بمكانة مرموقة لدى المؤمنين بها سواء كانوا من المصريين أو من غيرهم، وذلك لما كانت تحمله أسطورتها من معاني الحب والحنان والوفاء والبعث والأمل في حياة آتية بعد الموت .

وقد لقيت التقدير من البطالمة إذ جعلوها عماد ثلوثهم الذي عبده في مصر، مقرنين معها سرايس بدلا من اوزوريس ، وهاربو قراطيس وما إن سمعت كلاهما حتّى انطلقت إلى الإله جوبيتر متوسلة إياه ليعيد إليها حبيبته بروسيرينا من العالم السفلي فأجابته أنه من السهل انتعادتها إذا لم تتدوق طعامه غير أن ابنتها كانت تذوقت سبع حبات من رمانة العالم السفلي عند ما كانت تتجول في حدائقه فحال بيتها وبين العودة إلى عالم الأرض، لكن سرعان ما تدخل الإله جوبيتر بين أخيه وشقيقته الحزينة فقسّم العالم إلى قسمين متساويين حتّى تقيم بروسيرينا مع أمها سيريس فتبدل وجه أمها وأشرق فرحاً بعودتها .<sup>2</sup>

بدلاً من حورس ... وكانت إزيس الباب الذي دلف منه المسيحيون في هدوء إلى العذراء مريم ... انتقل القانونيون من عبادة إزيس إلى عبادة أم أخرى هي أم المسيح ، ويمكن الاستدلال على مبلغ ذلك الهدوء

<sup>1</sup> أليبيديل : سحر الأساطيل ، دراسة في الأسطورة ، الحياة ، تر: حسان ميخائيل إسحاق ، ط2، دار علاء الدين ، للنشر والتوزيع والترجمة، سورية، 2008، ص 22.

<sup>2</sup> أليبيديل : سحر الأساطيل ، دراسة في الأسطورة ، المرجع سابق ، ص 22.

كما قبيل من تماثيل عديدة معروف أنها لها أصبحت تستخدم فيما بعد لتمثيل السيّدة مريم العذراء ، بما يعني أن ازييس المصرية المخصصة تماثل مريم .

## ثانيًا: الأبعاد الرمزية والدلالية لتيمة الأرض

### 1. البعد الديني والروحي :

لقد اكتسبت الأسطورة أهميتها ومكانتها لما لها من خطرة دينيّة فلقد ظهرت الأسطورة عندما بدأ الإنسان يرغب في التعبير عن إنكاره كما يلاحظ في الأساطير القديمة أنّ الآلهة تتخذ هيئتها مثل البشر أو ترسيم السلوك مثل البشر.

وقد لا يكون ففي تاريخ العالم الأجمع أمة تأصلت الديانة فيها وامتزجت بحياة أهلها امتزاجًا عظيمًا كالحضارة المصرية، وقد ارتبطت الأساطير بالكثير من العقائد الدينيّة والجنازية التي كانت موجودة ويمارسها المصريين القدماء شأنهم في ذلك شأن سائر الشعوب القديمة، إذ كانت الأساطير الوسيلة التي يستطيع المرء بها أن يفكر في شيء لا يدركه ولا يستطيع فهمه، أو أنّ يصل إلى معنى أو هدف إرادة أسطورة إيزيس وأوزوريس هي واحدة من أشهر الأساطير في الميثولوجيا المصرية القديمة، وتعتبر من القصص التأسيسية التي تظهر العلاقة بين الآلهة والبشر وتظهر الأسطورة قيم الإخلاص والحب والقوّة السحرية كما تبرز دورة الحياة والموت والبعث، وهي مفاهيم أساسية في المعتقدات المصرية القديمة<sup>1</sup>، ويجب إبراز الأهمية أو الأثر الذي لعبته أسطورة إيزيس وأوزوريس في الفكر الديني للمصريين القدماء، حيث أنّ المصريين من أقدم العصور يعشقون القصص الخرافية، ولذلك نجد أنّ هذه القصص قد حكيت وتداولها الناس كأساطير محبّة إلى نفوسهم، قريبة إلى قلوبهم، لأنّ الآلهة فيها تشبهوا بني الإنسان فهم يتعاملون ويحبون ويكرهون، ويبدو أن القصص قد استجابوا إلى رغبة عامة الشعب إلى أنهم ألصقوا لمعوداتهم صفات لا تتفق مع جلالها وعظمتها، وإذا حدث أن تحدث الناس بقصة معينة عن إله في مكان معيّن فلا تلبث هذه القصة أن تنتشر في البلاد تختلط تارة وتمتزج بقصته الآلهة الأخرى الخاصة بالأمكان المختلفة حتّى تصبح هذه الأساطير مشاعة بين جميع المصريين .

كان الناس يتداولون الأساطير لأنها جعلت الآلهة مثل البشر في تصرفات كثيرة كالحب والكراهية ... فكانت الأساطير تختلط بأساطير أخرى حتّى أصبحت معروفة بين جميع المصريين.

<sup>1</sup> قماز شيماء نسرين : أسطورة ازييس وأوزوريس، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، المرجع السابق، ص 02.

وفي آخر الأمر لم يستطع الدين الرسمي الذي يعتنقه الكهنة ويمارسونه في المعابد أن يصمد أمام هذه الأساطير فتسربت إليه الواحدة بعد الأخرى ، ولكن بعد أن نزع عن الكهنة بعض الأوهام التي ألصقوها بالآلهة ولو أنهم لم يستطيعوا انتزاع كل الصفات التي حاكمتها هذه الأساطير حول الآلهة، وبدأ تتسرب هذه الأساطير إلى الدين الرسمي منذ العصور القديمة<sup>1</sup> واستمر بعد ذلك، وكلما ظهرت أسطورة جديدة بين الشعب كتب لها الانتشار ... .

لقد استمر تأثير الأساطير على الناس، وقد أصبحت جزءاً من حياتهم وأن الدين الرسمي لم يمنع من انتشار الأساطير لأنّ لها بعد ديني كبير وحاول الكهنة إزالة بعض الأوهام البشرية التي نسبت للآلهة.

**الأرض ككيان مقدّس:**

**أسطورة إزيس وأوزوريس :** أسطورة إزيس وأوزوريس هي قصّة التي تغلّغت في وجدان المصريين منذ عصر الدولة القديمة تتمحور حول الآلهة إيزيس وأوزوريس وأخوهما الشرير ست وابنه حورس، وإبراز ما مدى أهمية وتأثير أسطورة إيزيس وأوزوريس في المعتقد المصري القديم.

#### تعريف شخصيات الأسطورة :

**أوزوريس : Osiris** كان أوزوريس أكثر الآلهة شعبية في مصر سبب مظهره وخلقه الرضى والنعمة الوفيرة على البشرية ... فلم يقده المصريون فحسب، بل غزا أفئدة الكثيرين من شعوب خوض البحر المتوسط ... حيث يعتبر أوزوريس من أعظم المعبودات المعروفة في مجمع الآلهة المصرية ومن المحتمل أنّه أحرز أكثر الرموز شهرة ... ولقد ورث أوزوريس الحكم الأرضي من أبيه الإله جب<sup>2</sup>.

إنّه لم يكن معظماً في أول الأمر لكن قصته ارتبطت بالحياة والموت فقد نُسب له كلّ ما يحدث، فإذا ما جاء الفيضان فيعد الإله أوزوريس هو الماء الجديد الذي يجعل الحقول خضراء ليعيش الإنسان والحيوان، وعُبد في كلّ أقاليم مصر بعد أن قتله أخاه ووُزعت أعضاؤه على كلّ الأقاليم ومن أبرز هذه الأماكن دلتا والصعيد كمركزين لعبادة أوزير .

**إزيس isis :** كانت المعبودة من المعبودات التي عرفها المصريون في الأسرتين الأولى والثانية ولزيس من أشهر الآلهات المصرية نشأت في الدلتا ووردت في قصّة أوزوريس .

ومنذ ذلك الوقت فقدت طابعها، وبقيت محافظة على أنّها زوجة أوزوريس والأم لحورس وبما أنّ أبنها هو إله الشمس فإنّها تعتبر إلهة السماء.

<sup>1</sup> قماز شيماء نسرين : أسطورة ايزيس وأوزوريس المرجع السابق، ص 03.

<sup>2</sup> المرجع نفسه ص 06.

وهي عظيمة في السحر لأنها أضفت حماية على ابنها حورس من الثعابين والحيوانات الضاربة، وهي غالبًا مثلت في هيئة امرأة على رأسها كرسي العرش أو امرأة على رأسها هلال القمر أولها قرنان من زهور اللوتس وأذني بقرة .

**ست seth** : ست من الأعلام الموجودة على رأس مقمعة الملك العقرب يوجد علمان يحملان حيوان الإله ست، ... وكان أحد ألقاب ست الأكثر شيوعًا العظيم في قوته أو (عظيم القوة) ففي أحد متون الأهرام تقرر أنَّ قوة الملك هي قوة ست، ويظهر الإله باعتباره الرفيق الخاص بمصر العليا للإله الملكي لمصر السفلي حورس ... "، اشتهر الإلمست بأنه إله شر، وذلك نتيجة موقفه مع الإله أوزيرحور في الأسطورة الأوزيرية ... كما نجد بأن لعاب ست يستخدم لتطهير الموتى.<sup>1</sup>

**حورس horus** : يعتبر إلى السماء، عرفت صورته على هيئة صقرنا شرًا جناحية واعتبرت عيناه الشمس والقمر ... وكان يحكم السماء والنجوم وأطلق عليه سيد السماء وأقدمت له عدة معابد في الصعيد وفي الدلتا.

**نفتيس nephthys** : معنى اسمها سيّدة المنزل، كانت شقيقة أوزيريس، ويقال إنها زوجة ست .

### أحداث وأهمية إيزيس وأوزيريس :

احتلت أهمية كبيرة في حياة ومعتقد المصريين القدماء تزوج أوزيريس من أخته إيزيس أماست، فقد تزوج من أخته أمّا حور هو ابن إيزيس وأوزيريس.

تشير أقدم مصادر الأسطورة إلى كَوْن أوزيريس هو الابن الأكبر للمعبود "جب" ربّ الأرض والمعبودة "نوت" ربّة السماء " وكان أوزيريس ملكًا عظيمًا وبطلًا من أبطال<sup>2</sup> الحروف، وتحدث أيضًا عن أحقية أوزيريس بالعرش " يا أوزير الملك إنك أكبر أبناء جب وليدة الأول، ووريه يا أوزير الملك إنك الذي خلقه، أعطى لك الميراث من قبل التاسوع لأنّ لك السيادة على التاسوع وكلّ إله<sup>3</sup> "، وكان ست حاقداً على أخيه أوزيريس على المكانة التي وصل إليها في قلوب الناس ومجتمعهم له.

**موت أوزيريس** : دعا ست أخاه إلى حفل كبير، وبعد أن ثمل الجميع قام ست وعرض على المشاركين تأبوتًا من الذهب، وأعلن أنه سيقدم التأبوت هدية لمن يكون الصندوق على مقاسه وجرب الحاضرون

<sup>1</sup> قمار شيماء نسرين : أسطورة ايزيس وأوزيريس، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، المراجع السابق، ص 07.

<sup>2</sup> خضر محسن، الفكر الفلسفي في أسطورة إيزيس وأوزيريس، مجلة الفيصل الأدبية، المجلد 02، العدد 01، دار المنظومة ، 2018، ص 200.

<sup>3</sup> عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الفكر الديني، ج3، ط2، الأقصى للطباعة والتجارة والتوريدات، القاهرة ، 2016.

التابوت فكان لا تينا سب معهم ، لأنَّ التابوت صمم على مقاس أوزوريس وما إن جاء الدور حتى جربه وأغلق عليه ورموه في النيل<sup>1</sup> .

وعندما اختفى أوزوريس حزنّت الآلهة وبكت إزييس وحيدة مسكينة ... ، ولعبت دور الزوجة والأخت المثالية وأرادت البحث بكلّ الطرق وفي شتّى بقاع الأرض ... ، فقد اختلف الباحثون حول المكان الذي عُثِر فيه على جَسَد أوزوريس، فبينما يرى البعض أنّه كان عند منظمة ندية، بالقرب من مدينة البلينا محافظة سوهاج.

### البعد الاجتماعي والثقافي :

لقد عكست الأساطير المصرية البيئة الطبيعية لوادي النيل، كما حدّدت جغرافيته صورة العالم في عقول المصريين، حيث اعتقدوا أن العالم سهل مستو كسهل وادي النيل تمتد من فوقه السماء كطبقة مسطحة ترفعها دعائم أربع في أركان العالم، وكان الناس يقصدون تاريخ الآلهة في صيغة الماضي إذ يتحلل هذا الماضي في صورة الزمان هيئة الزمان الموجود في عالمنا<sup>2</sup>.

وقد تنوعت الأساطير القديمة، وكان تنوعها استجابة لنمو وتطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع المصري القديم، فكان لكل أسطورة فلسفتها واتجاهاتها كوسيلة ومدخل إلى تفسير الحياة المصرية القديمة.

### ثالثاً: الوظيفة الأسطورية لتيمة الأرض

#### 1. أسطورة الخلق عند الزولو:

آمنت قبائل الزولو الإفريقية في أسطورتها الخاصة بالخلق أنكلنكولو unkulukulu تقول الأسطورة في البدء كان هناك الظلام ، وفي الظلام كانت هناك بذرة كبيرة، غاصت تلك البذرة في الأرض ومن تلك الحبة نَمى القصب الطويل، وكان ذلك القصب سُمي أو تلانجا، ما يعني (مصدر كلّ شيء)<sup>3</sup>.

أحد تلك الأعواد أزهرت رجلاً ذلك الرجل كان أونكلنكو أو الرجل الأوّل (خالق كلّ شيء) وعندما بدأ يتجول على الأرض رأى عيدان القصب تتحول إلى رجال ونساء (أونكلنكو) قطف المواشي. ثم صنع الأنهار والجبال وأجرى الرياح وأنزل المطر ثم صنع الشمس والقمر (أونكلنكو) .

<sup>1</sup> خضر محسن، الفكر الفلسفي في أسطورة إزييس وأوزوريس ، مجلة الفيصل الأدبية، المجلد 02، العدد 01، دار المنظومة.

<sup>2</sup> قماز شيماء نسرين : أسطورة ازييس وأوزوريس المرجع السابق.

<sup>3</sup> ضحى صلاح ، 19 أبريل 2018 هذه أغرب الأساطير عن بداية خلق الإنسان حول العالم Noor.post.com

تركز أسطورة قبائل الزولو على بداية نشأة الإنسان ، وكيفية ظهور الرجل الأول، وكيفية خلق البشر والحيوانات ثم صنع الأنهار والجبال والرياح والمطر ... .

**أسطورة الخلق عند الأزيك :** قبل أن تتكون الأرض كانت هناك كوتيلكو (أم الأرض) كانت تسبح في مياه مظلمة وُجدت من قبل خلقت القمر والنجوم ، ثم خلقت أبنيتها الأرض وأطلقت عليها كويوزاوكي أنطلق أبنائها إلى السماوات ليحكموها.

في يوم من الأيام وجدت كوتيلكو كرة من ريش الطائر الطنان فوضعتها في رداها لتحفظ بها وبعد فترة اكتشفت أنها حبلت ، فغضب أبنائها في السماوات وشعرو بالعار من أمهم وسألوها (من أبو ذلك الطفل؟) أجابت قد كانت من ريش الطائر الطنان ، ولم يصدقوها، وبالطبع قرروا أن يقتلوا أمهم من أجل العار<sup>1</sup>، وعندما عرفت كوتيلكو بينهم في قتلها حاولت الهرب ثم سمعت صوتا يقول "لا تخافي فأنا مستعد" فقد كان هذا صوت الطفل الذي في أحشائها.

#### أسطورة أنزار :

تقول الأسطورة، إنه حين صعد أنزار إلى السماء مكسور القلب بعد أن رفضت فتاة طلبة للزواج منها، كان يرسل في كل فترة طائر السنونو الأسود، ليسبش الناس بنزول المطر، وحتى لا يصيبهم اليأس. تقول الأسطورة أن أنزار حبس الماء عن قبيلة الفتاة التي رفضته للزواج فأصابهم الجفاف والقحط. ولأنّ الأمازيغ كانوا يعرفون أن هذا الطائر مبعوث من عند الإله أنزار ، كانوا يمسونه ويخضبون رأسه بالحناء على الآلهة يتجاوز عن خطيئة ابنتهم، ويصفح عنها ولا يأخذهم بذنبها. تلك الأسطورة أصبحت إرثاً تتناقله الأجيال ، حيث تحرص بعض القرى الأمازيغية، على إحياء هذه العادة القديمة حيث يحلّ الجفاف ويقل المطر في عز الشتاء، فتشكل النسوة صفًا، يسرن وهن ينشدن " أنزار، أنزار، أربي سويسيد أر أزار " بمعنى " يا أنزار أسق الأرض إلى جذورها يا رب " . قصة حب أسطورية ؟

تحكي الأسطورة ، أنّ إله المطر أنزار لمح شابة على ضفاف نهر، إذ كانت عاشقة للمياه، وأحبها حباً جنونيا وحينها تنازل عن كبريائه ، وصارح أنزار الفتاة بحبه لها لكنها رفضته بأدبن واعتبرت مواعداها لأنزار خيانة لأهلها وقبيلتها.

<sup>1</sup> ضحى صلاح 19 أبريل 2018 من أغرب الأساطير عن بداية خلق الإنسان حول العالم

وبعد أن رفضت طلبه، أصبح أنزار يعيش في حال يتراوح بين الحزن والغضب، فحبس الماء عن قبيلتهم فأصابهم الجفاف فما كان منها إلا أنها تضرعت لأنزار بالعودة وقبلت أن تكون زوجة له من أجل قبيلتها.

تقول الأسطورة، أن أنزار تزوج بالفتاة وأصبحت : تسليتان أنزار " أي عروس أنزار، وحملها بين ذرتعيه ورجعا إلى السماء، وجعلت حياته ملونة بألوان السعادة والخير، تلك الألوان التي تسمي قوس قزح. حسب الأسطورة الأمازيغية، هي نتائج زواج أنزار بتسلييت وما قوس قزح إلا ظل للطريق التي عرجا بها نحو السماء .

يسمى قوس قزح في بعض المناطق الأمازيغية إلى يومنا هذا " شليت ن أنزار " لذا فإن الأمازيغ يتبركون بأنزار حيث يطوفون وهم يرددون أهازيج تمجيد عروسته من أجل طلب عطفه ليسقي الأرض بمائه، ولا زالت لحد الآن تُقام هذه العادة عند الجفاف، فتطوف نساء القرية والأطفال الصغار، ويرددون أهازيج تمجد أنزار، حاملين معهم ملعقة بلباس تقليدي بحيث يشبه " شليت ن أنزار " .

#### طقوس طلب الغيث :

حين ينتصف فصل الشتاء، أو توشك أيدته على النهاية ولم تُمطر وعمّ الجفاف في المدن والقرى، ولم يجد القرويون الماء شيتهم أو يسقون به محاصيلهم وبساتينهم، يتفق أعيان القرية على اللقاء في مكان معلوم من أجل إقامة عادة أنظار وطلب الماء في السماء ليسقي الأرض والقلوب .

تختار كل عائلة متطوعة من النساء، ليحجن القرية ويطرقن في أبواب المنازل، من أجل طلب القمح والزيت والخضر أو المال، من أجل تحضير الطعام للقادمين لإحياء العادة، وفي بعض الأحيان تتطوع عائلة ميسورة الحال كي تحضر الغذاء أو العشاء، ليكرموا به القادمين لطلب الغيث .

بعد أن تجمع النسوة ما استطعن، يكمل الرجال ما تبقى من هذه الطقوس، بحيث تشترون ما تراه التوة ناقصًا لتحضير الوليمة، في اليوم الموعد يلتقي جميع سكان القرية، بحيث تجلس النساء في جهة والرجال في جهة أخرى.

تحضر النساء الطعام وتقعد منه، بينما تأخذ مجموعة أخرى في الغناء والإنشاد وتحضير الحناء هنا يتجاوز المشهد طلب الغيث ليصبح فضاء للدعاء بالسلامة لأهل القرية والرّفاة لسكانها، فيما تغرق المسنات من نشاء القرية في الدعاء بالزواج والبنين للفتيات، في جو عائلي مميز.

من جهتهم يتخذ الرجال مجلسًا لهم في جو جميل، وبعد الفراغ من الأكل يقومون بجمع التبرعات للفقراء والمحتاجين من سكان القرية وأهلها، كما يحرص أعيان القرية، على إلقاء كلمات للوحدة ولم

الشَّمْل ، فبحسبهم فإن سواد القلوب هو عطلّ المطر، لينتهي المجلس برفع الأيدي والدعاء لله، بأن يرزق الأرض غيثًا يشفي ظمأها وينتقد بساتين الفلاحين.

### 1. الوظيفة التفسيرية :

تفسير الظواهر الطبيعية الموجودة في الأسطورة :

1. ظاهرة قوس قزح (عروس المطر / تسليت ن أنزار): هذه الأسطورة (عروس أنزار) تربط بين عطف إله المطر ليسقي الأرض بمائه.

لكن تفسير ظاهرة قوس قزح هو ناتج عن تفاعل الشمس مع قطرات المطر، فيمر ضوء الشمس عبر قطرات المطر فيحدث انعكاس داخلي، وهذا التفاعل يؤدي إلى تحليل الضوء الأبيض إلى ألوانه.

2. ظاهرة الجفاف وانحباس المطر : ففي الأسطورة انحباس المطر راجع إلى أسباب غيبية مثل سواد القلوب، وهذا الجفاف يعبر عن غضب يتطلب من خلاله تقديم القرابين.

### 2. الوظيفة التربوية والقيمية لأسطورة أنزار:

#### 1. الوظيفة التربوية :

- تلقين الموروث الثقافي للأجيال حيث تعمل الأسطورة على نقل الهوية واللغة والتراث من خلال اشراك الأطفال في تزيدي الأهازيج .

- المشاركة في العطاء : يتعلم الأطفال من النساء جمع التبرعات ويقوم الرجال بتغطية النقص.

- الربط الوجداني بالأرض: تربي الأسطورة الأجيال على احترام الطبيعة والارتباط بالأرض، وغرس الوعي لدى الأطفال بأهمية الأرض والماء في حياة الإنسان والحيوان والنبات.

- الوظيفة القيمية (الأخلاق والتماسك الاجتماعي):

- قيمة التكافل والتضامن: يظهر ذلك من خلال التبرعات وتوزيعها على مستحقيها من الفقراء والمحتاجين في يوم الوليمة المشتركة .

- قيمة لمّ الشمل: يعدّ الطقس فرصة لسكان القرية لإلقاء كلمة تدعو إليه بنذ الخلافات .

- قيمة الضيافة والكرم: ويظهر من خلال تقديم العائلات الميسورة الحال بتحضير الوجبات وإنفاقها على القادمين.

- التطهير الروحي: يربط المجتمع بين صفاء النفوس ونزول المطر، معتبرين أن سواد القلب هو الذي يقف وراء نزول المطر.

- الدعاء للآخرين : فالدعاء في هذه الأسطورة لا يكون بطلب المطر، بل تتسع القيمة الإنسانية لتشمل الدعاء الجماعي بالزواج والبنين والصحة والأمان ... فالأسطورة لم تكن مجرد حكاية بل هي تعد بمثابة دستور أخلاقي واجتماعي ينظم المجتمع.

### خلاصة الفصل :

من خلال ما درست في بحثي توصلت إلى أنَّ الأسطورة باعتبارها حكاية مقدسة، نشأت لتفسير الظواهر الطبيعية والكون، وعملت الأسطورة على نقل المعارف والعادات، والتقاليد .

وتحتل الأرض مكانة محورية فهي أصل للخلق، ومصدر للخصوبة والأرض تعتبر الأم الكبرى فهي تمنح الحياة للإنسان والحيوان .

وللأرض مكانة محورية فهي أصل للخلق، ومصدر للخصوبة والأرض تعتبر الأم فهي تمنح الحياة للإنسان والحيوان .

وللأرض أبعاد رمزية ، فهي رمز للهوية الجماعية، وتعد وعاء للذاكرة الثقافية الشعبية، وتساهم في حفظ الموروث الثقافي مما يجعلها عنصراً فعالاً في استمرارية المجتمع وتماسكه.

كما اعتمدت في بحثي على إبراز الوظيفة التفسيرية لتيمة الأرض في بعض الأساطير الإفريقية من خلال تفسير الظواهر الطبيعية فأصبحت الأرض إطاراً رمزياً لفهم الكون والعلاقة بين الإنسان والعالم المحيط به كما كشفت الأسطورة عن الجانب التربوي والقيمي فتؤدي تيمة الأرض دوراً مهماً في ترسيخ الانتماء ، وتغرس الأساطير معاني التضامن واحترام التراث مما يجعلها وسيلة لنقل القيم الثقافية والاجتماعية من جيل إلى آخر.

فالأرض ليست مجرد فضاء جغرافي، فهي رمز ثقافي وروحي واجتماعي غني بالدلالات، يجسد المقدس والهوية والذاكرة الجماعية، ويؤدي وظائف تفسيرية وتربوية يفهم الإنسان ذاته وعلاقته بالطبيعة والمجتمع .



خاتمة



## الخاتمة :

أسفرت دراستنا لموضوع تيمة الأرض في الميثولوجيا الإفريقية -دراسة في نماذج مختارة-، على اعتبار أن الأساطير في الثقافات تفتح لنا نافذة لكيفية أرسى بها الإنسان دعائم حضارته وثقافته على جملة من النتائج يمكن حصرها في الآتي:

-لم تكن الأسطورة يوماً مجرد حكاية عابرة لتزجيت الوقت في السهرات الإفريقية بل هي خزان معرفي وفلسفة وجودية متكاملة، وتعمل الأسطورة على الغوص في أعماق الفكر البشري .

- تتجاوز الأرض في المخيال الأسطوري الجغرافيا والطبيعة، بل هي مكان مقدس ونبع نابض بالحياة .
- قامت الأسطورة بالربط بين الإنسان وأرضه ارتباطاً وثيقاً .
- أنَّ اهتمام الإنسان بالزراعة جعلته يتقرب من آلهة الخصوبة ليضمن خصوبة أراضيه.
- اهتمت الكثير من الثقافات بظاهرة الخصب والنماء في أساطيرهم ما جعلها تحظى بمكانة مرموقة .
- ليست الأرض مسرحاً نعيش عليه بل هي الشاهد الأول والوجه الحقيقي لقصة الموت والبعث، إنها الرحم الذي نخرج منه والمستودع الذي يعود إليه، فكل حبة من القمح تموت وتدفن، ثمَّ تشير بميلاد سنبله خضراء مفعمة بالحياة .
- عملت الأسطورة كوسيلة تعليمية حيّة تنقل المعارف والخبرات من جيل إلى جيل، من خلال تعليم الإنسان الإفريقي كيف يتعامل مع الطبيعة بوصفها مصدرًا للحياة والخصوبة .
- كرّست الأساطير قيما للتضامن والتعاون والعمل الجماعي .
- ربطت الأسطورة بين الفكر الأسطوري والبيئة فلم تخلق هذه الأساطير من فراغ بل رغبة الإنسان للتخلص من الخوف والقلق تجاه ظواهر غامضة كالموت والجفاف .
- كشفت كثير من الدراسات عن تشابه بين الثقافات في البنى الأسطورية كرحلة إيزيس المصرية واختطاف بروسيرينا وحزن أمها، والصراع بين بعل إليه الخصوبة وموت إله الموت والجفاف في الفكر الكنعاني، وأنَّ نزول إله الخصب إلى العالم السفلي هو تمثيل لدورة الزراعة (موت النبتة في الشتاء وانبعاثها في الربيع).
- تعكس الطقوس مثل القائمة ووضع الفليو في الماء عن رمزية مزدوجة تجمع بين خصوبة المرأة وجود الأرض فالمرأة العجوز والطفل والصبية العذراء تجسّد النية الصافية في مواجهة الأزمات الطبيعية كالجفاف، كما يعكس رمز طقس عروس المطر أو تحزام الكلبة كرد فعل ضدّ الرياح الحارة، وكيفية ترجمة العقل الجمعي مخاوفه من الهلاك والتلف.



# قائمة المصادر والمراجع

## القرآن الكريم

### أولاً: المصادر

#### - مجموعة من الأساطير الإفريقية

### ثانياً : المراجع

#### 1. العربية :

1. آثار البلاد وأخبار العباد .
2. أدونيس ، موسيقى الحوت الأزرق (الهوية ، المتابة ، العنف) دار الآداب ، بيروت ، 2002.
3. أساطير افريقية .
4. أعمال ملتقى الأدب والأسطورة ، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة باجي مختار، عنابة، 2007.
5. حنّا عبود ، الميثولوجيا العالمية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ط4، 2009.
6. خليل أحمد خليل، مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1986.
7. أسامة أبو العباس ، دراسات عربية رسالة المشرق، من ملامح الخيال الشعبي في التراث العربي الإسلامي.
8. راوية زعموشي ، البنية الميثولوجية للقصة التوراتية قصة الخلق أمودجًا .
9. سعيد يقطين، قال الراوي: البنات الحكائية في السيرة الشعبية.
10. سلسلة عندما نطق السراة، الأسطورة توثيق حضاري 21.
11. صالح ولعة ، أعمال ملتقى الأدب والأسطورة ، منشورات خبر الأدب العام والمقارن ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار ، عنابة ، 2007.
12. عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الفكر الديني، ج3، ط2، الأقصى للطباعة والتجارة والتوريدات، القاهرة ، 2016.
13. عثمان حشلاف: الرمز والدلالة في شعر المغرب العربي المعاصر ، فترة الاستقلال ، الجزائر، دط ، 2000.
14. فراس السواح ، لغز عشتار، الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة ، ط7، دار علاء الدين ، دمشق، 2000.

15. فراس السواح، الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية ، منشورات دار علاء الدين ( ط2 ) ، 2001.
16. قاسم الشواف، ديوان الأساطير ، سومر وأكاد وأشور ، دار الساقى ، سوريا ، 1997، ك 2.
17. محمود درويش ، من خطبة الهندي الأحمر - ما قبل الأخيرة - أمام الرجل الأبيض ، أحد عشر كوكبًا ، دار العودة ، بيروت ، 1993.
18. نادية العمري ، أضواء على الثقافة الإسلامية ، دمشق، سوريا، 1998..
19. نضال الصالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة ، منشورات ، اتحاد الكتاب العرب ، ط1، 2001، دمشق .
20. محمد حمود ، الحداثة في الشعر العربي المعاصر، بينها ومظاهرها، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، لبنان، 1986.
21. محمود مفلح البكر: الروح الأخضر، احتفالات الخصوب في العادة والمعتقد ، ط1، دار الحضارة الجديدة، بيروت، لبنان، 1992.
2. المراجع المترجمة:
22. ألبديل ، سحر الأساطيل ، دراسة في الأسطورة ، الحياة، تر: حسان ميخائيل إسحاق ، ط2، دار علاء الدين ، للنشر والتوزيع والترجمة، سورية، 2008.
23. كلود ليفي شتراون ، الأسطورة والمعنى ، تر : شاكِر عبد الرحمن ، دار الرحمن، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، العراق ( د ط ) ( د ت ).
24. سير جيمس فريز: أدونيس أو تموز، دراسة في الأساطير والأديان الشرقية القديمة ، تر: جبرا إبراهيم ، ط3، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، لبنان، 1982.
- ثالثًا : المعاجم والقواميس
25. ابن منظور ، لسان العرب، منشورات علي بيضون، دار الكتاب العلمية، الطبعة 1، 2003، ج1.
26. الزبيدي محمد مرتصف تاج العروسة ، ج3، من جواهر القاموس، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت، ط1، سطر.
27. الزمخشري: الكشاف، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط1.

28. الفارابي أبو النصر إسماعيل بن حماد الجوهري، (المتوفى 393 هـ) الصحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة، ج2، تحقيق أحمد عبد الطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط4، 1407هـ/1987 .
29. الفيروز أبادي: قاموس المحيط، دار الفكر ، بيروت، د ط ، 1983، ج1.
30. المعجم الوسيط : معجم اللّغة العربيّة، الجزء الأوّل، مطبعة مصر.
31. عبد الرحمن بوزيدة وجمال معتوك وآخرون : قاموس الأساطير الجزائرية ، دط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، منشورات CRASC وحدة الرغبة ، الجزائر، 2005.
- رابعًا : المجالات
32. لويّزة جبيلية : الأسطورة والفكر العربي، مجلة تاريخ العلوم، العدد السادس، جامعة باتنة 1.
33. خضر محسن، الفكر الفلسفي في أسطورة إيزيس وأوزوريس، مجلة الفيصل الأدبية، المجلد 02، العدد 01، دار المنظومة ، 2018.
34. رزايقية فاطمة، بن معمر بوخضرة : الماء والأرض والمرأة ودلالات الخصوبة من خلال طقوس الاستمطار، مجلة المواقف ، للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ ، مجلد16، عدد 01، مارس 2020.
35. وردة لواتي، الأسطورة الإفريقية، خصائص ومميزات ، مجلة إشكالات في اللّغة والأدب، العدد 7، المجلد 02 ، ماي 2015 ، الجزائر .
36. قمار شيماء نسرين : أسطورة إيزيس وأوزوريس ، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية ، المجلد 12، العدد 03، 2024.
37. طيب عمارة فوزية : التداخل اللّغوي في الأسطورة دراسة تداولية للأثر المعرفي والثقافي، مجلة الآداب واللّغات والعلوم الإنسانية ، المجلد 8 العدد 2، جامعة الشلف ، سبتمبر 2025.
38. شهيرة بوخونوف، أساطير الخصب في بعض الثقافات(مخبر التمثلات الفكرية والثقافية – إبداع تواصل – نقد)، مجلة أكاديمية تعنى بالدراسات الأكاديمية في الأدب واللغة والثقافة والفكر ، كلية الآداب واللّغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو ، العدد 03 أفريل 2017.
39. شوقي زقادة ، (دلالات المكان في أساطير بلاد ما بين النهرين) ، مجلة أنتروبولوجيا ، مجلد 05، العدد 10، قالمة، 2019.

ثانيا : المراجع والمصادر باللغة الأجنبية :

1. Pierre smith , Encylopedia universalis , tous droits réservés, paris , 2004
2. Kathleen morner and ralph rauxxl MCSDI ctionary of literary terms (Chicago, Ntc publishing group 1991 .

# الفهرس

البسمة

الشكر والعرفان

الإهداء

أ ..... مقدمة

## الفصل الأول : الأسطورة والإفريقية : مقاربات مفاهيمية

|     |                                                                |
|-----|----------------------------------------------------------------|
| 06  | تمهيد .....                                                    |
| 07  | أولاً: مفهوم الأسطورة في الدراسات الحديثة .....                |
| 8-7 | تعريف الأسطورة لغويًا واصطلاحًا .....                          |
| 11  | الفرق بين الأسطورة والحكاية الشعبية والخرافة .....             |
| 15  | ثانيًا : خصوصيات الأسطورة الإفريقية .....                      |
| 17  | الشفاهية ودورها في تشكيل الأسطورة .....                        |
| 21  | البعد الديني والروحي .....                                     |
| 23  | العلاقة بين الإنسان والطبيعة .....                             |
| 24  | الرمزية والأسطورة .....                                        |
| 26  | ثانيًا : الأرض في المخيال الأسطوري .....                       |
| 26  | 1. مفهوم الأرض ودلالاتها الرمزية .....                         |
| 27  | الأرض كأم كونيّة .....                                         |
| 30  | الأرض كأصل للخلق .....                                         |
| 30  | 2. تمثيلات الأرض في الأساطير العالمية (مدخل مقارن مختصر) ..... |
| 30  | خصوصية التصور الإفريقي للأرض .....                             |

## الفصل الثاني: صورة الأرض في الأساطير الإفريقية

|    |                                    |
|----|------------------------------------|
| 34 | تمهيد .....                        |
| 35 | الأرض بين القداسة والخصوبة .....   |
| 36 | الأرض مصدر الحياة .....            |
| 41 | طقوس الخصوبة المرتبطة بالأرض ..... |
|    | الأرض والهوية والانتماء .....      |

|       |                                                                 |
|-------|-----------------------------------------------------------------|
|       | الأرض كعنصر مكوّن للهوية الجماعية الأرض والملكية الجماعية ..... |
| 45    | أولاً: تمثيلات الأرض في أساطير الخلق والخصوبة الإفريقية .....   |
| 45    | 1. الأرض في أساطير الخلق الإفريقية .....                        |
| 46    | العلاقة بين السماء والأرض .....                                 |
| 48    | أسطورة خلق الأرض والإنسان .....                                 |
| 49    | الموت والبعث المرتبطان بالأرض .....                             |
| 51    | 2. الأرض في الأساطير الزراعية وأساطير الخصوبة .....             |
| 51    | الأرض ودورة الحياة .....                                        |
| 53    | ثانياً : الأبعاد الرمزية والدلالية لتيمة الأرض .....            |
| 53    | 1. البعد الديني والروحي .....                                   |
| 54    | الأرض ككيان مقدّس .....                                         |
| 56    | 2. البعد الاجتماعي والثقافي .....                               |
| 56    | دور الأرض في حفظ التقاليد .....                                 |
| 56    | ثالثاً : الوظيفة الأسطورية لتيمة الأرض .....                    |
| 59    | 1. الوظيفة التفسيرية .....                                      |
| 59    | تفسير أصل الحياة والموت .....                                   |
| 59    | 2. الوظيفة التربوية والقيمية .....                              |
| 59    | ترسيخ قيم الانتماء .....                                        |
| 62    | خاتمة .....                                                     |
| 67-64 | قائمة المصادر والمراجع .....                                    |
| ..    | الفهرس                                                          |
| ..    | الملخص                                                          |

## ملخص :

احتلت الأسطورة حيزًا كبيرًا في الحياة المعرفية للإنسان، وتعد الأرض لها قيمة كبيرة في الميثولوجيا الإفريقية فهي أصل للخلق ومنبع للوجود وهي أم كونية تحتضن المخلوقات، وتمنحها البقاء والاستمرار ، وارتبطت الأرض باعتقاد الشعوب الإفريقية ، وهي مقر للأرواح والأسلاف، فلها بعد ديني وروحيًا، وارتبطت كذلك بطقوس الخصوبة، فهي تهدف إلى استمرار دورة الحياة.

فلا يبدأ موسم الحصاد في إفريقيا دون تقديم قربان للأرض، وتؤدي دورًا مهمًا في تشكيل الهوية والانتماء فهي الرابط بين الجيل القديم فهي كالحبل السري الذي يربط الطفل بأجداده وبأراضيهم.

فالأرض في الميثولوجيا الإفريقية رمزًا شاملاً ووعاءً فهي الحافظة للعادات والتقاليد ونقلها عبر الأجيال، وهي محور أساسي يربط بين عالم الأموات والأحياء والآلهة .

فالأرض هي أهم ما ركز عليه الإنسان الإفريقي من خلال رؤيته للعالم وعلاقته بالطبيعة والكون والمجتمع.

### Summary:

*Mythology has occupied a significant place in human knowledge, and the earth holds immense value in African mythology. It is the origin of creation and the source of existence, a cosmic mother that nurtures creatures and grants them survival and continuity. The earth is deeply intertwined with the beliefs of African peoples, serving as the abode of spirits and ancestors, thus possessing religious and spiritual dimensions. It is also linked to fertility rituals, aiming to perpetuate the cycle of life.*

*The harvest season in Africa does not begin without offerings to the earth. It plays a crucial role in shaping identity and belonging, acting as the link between the modern generation and the ancient one, like an umbilical cord connecting the child to their ancestors and their land.*

*In African mythology, the earth is a comprehensive symbol and a vessel, preserving customs and traditions and transmitting them across generations. It is a fundamental axis connecting the world of the dead, the living, and the gods.*

*The earth is the most important element that Africans have focused on in their worldview and their relationship with nature, the universe, and society.*